

أثر المدرسة الرومانسية في شعر طاهر زمخشري

ديوان (أحان مغترب) نموذجاً

سعيد بن عبد الله القرني

أستاذ الأدب والنقد المشارك في قسم اللغة العربية بجامعة بيشة

sagarni@ub.edu.sa

تاريخ الطلب: ٢٠٢٣/٤/٣

تاريخ القبول: ٢٠٢٣/٥/٨

ملخص البحث

يُعنى هذا البحث بدراسة تأثير المدرسة الرومانسية في شعر طاهر زمخشري بوصفه من أبرز الشعراء العرب الذين تميز شعرهم بالطابع الرومانسي.

وقد انعكست مظاهر الرومانسية في شعره من خلال صلاته الأدبية بالشعراء الرومانسيين، وقراءاته للشعر الرومانسي المترجم إلى العربية، وانفتاحه على أبعاد هذا الشعر وتمثله لمعانيه وموضوعاته وصوره، وكان من الضروري أن يتتبع البحث باختصار عوامل نشأة الرومانسية وأهم مدارسها في أوروبا وكيفية انتقالها إلى الأدب العربي ثم يأتي البحث في أربعة مباحث تدور حول مظاهر الرومانسية في شعر طاهر زمخشري، كالإحساس بالاعتراب وعشق الطبيعة وعاطفة الحب، كما يخصص البحث مبحثاً لدراسة تشكيل الصورة في شعره انعكاساً لأهمية الخيال في الشعر الرومانسي، وينتهي البحث بخاتمة تتضمن أبرز النتائج.

الكلمات المفتاحية: أحان مغترب – رومانسية – الخيال – طاهر زمخشري.

Abstract

This research is concerned with studying the influence of the romantic school in Tahir Zamakhshari's poetry as one of the most prominent Arab poets who distinguished their poetry with a romantic character.

The manifestations of romanticism were reflected in his poetry through his literary connections with romantic poets and his readings of romantic poetry that was translated into Arabic, and his openness to the dimensions of this poetry and his representation of its meanings, topics, and images.

It was necessary to follow -in short- the factors of the emergence of romanticism and its important schools in Europe and how it moved to Arabic Literature.

The research is divided into four sections revolving around the manifestation of romantic poetry of Tahir Zamakhshari, such as the sense of alienation, the love of nature and the passion of love.

The research devotes a topic to the study of the formation of image in his poetry as a reflection of the importance of imagination in romantic poetry.

The research ends with conclusions and results.

مقدمة

يُعني هذا البحث بدراسة تأثير المدرسة الرومانسية في شعر طاهر زمخشري من خلال ديوانه (ألحان مغترب) بوصفه من أشهر دواوينه وأعمقها تأثيراً بالرومانسية في موضوعاتها وصورها ومعجمها اللغوي. وقد عني البحث برصد أبرز العوامل التي أسهمت في تأثير طاهر زمخشري بالرومانسية، وأهمها اتصاله بالشعر الرومانسي الأوربي الذي تُرجم إلى العربية، وتوثق صلاته الثقافية بالشعراء العرب الذين تأثروا بالمدرسة الرومانسية الأوربية وتبنوا أفكارها، وتمثلوا خصائصها، وبخاصة جماعة أبولو بشعرائها البارزين من أمثال علي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل وإبراهيم ناجي، وأحمد زكي أبي شادي وأبي القاسم الشابي وغيرهم، وكان للفترة الزمنية التي عاشها طاهر زمخشري في مصر أثر كبير في الاتصال بالشعر الرومانسي والتأثر به، فضلاً عن الاستعداد الفطري والتكوين الذاتي للشاعر الذي اتصف برهافة الحس، ورقة المشاعر، وتغلغل النزعة الإنسانية في أعماقه.

وقد حفزت الباحث إلى دراسة هذا الموضوع عدة أسباب، منها:

- ١- المكانة التي يتبوّؤها طاهر زمخشري في خريطة الشعر في المملكة العربية السعودية، بوصفه واحداً من أبرز أدباء جيل الرعيل الأول الذين أسهموا في تأسيس النهضة الأدبية في المملكة.
- ٢- غلبة الطابع الرومانسي على شعر طاهر زمخشري.
- ٣- أن ديوان (ألحان مغترب) يُعدُّ من أبرز دواوينه التي تعكس تأثره بالمدرسة الرومانسية. وتكمن أهمية البحث في النقاط الآتية:

- ١- محاولة الكشف عن المؤثرات الرومانسية في شعر طاهر زمخشري من خلال (ديوانه ألحان مغترب).
 - ٢- تتبع مظاهر الرومانسية في قصائد ديوان (ألحان مغترب).
 - ٣- بيان مدى تأثير طاهر زمخشري بالرومانسية.
- وقد حظي شعر طاهر زمخشري بعدد غير قليل من الدراسات نظراً لمكانته الشعرية على المستوى المحلي والعربي، ولكثرته إنتاجه الإبداعي حيث تجاوزت دواوينه أكثر من عشرين ديواناً، ومن أبرز الدراسات التي تناولت شعره:

- ١- طاهر زمخشري - حياته وشعره، عبد الله عبد الخالق مصطفى، ط. مؤسسة سعيد للطباعة، طنطا، مصر.
 - ٢- شعر طاهر زمخشري، مريم سعود بو بشيت، ماجستير، كلية الآداب، القاهرة، ١٩٨٨م.
 - ٣- الرومانسية في الشعر السعودي الحديث، إقبال بنت محمد العرفج، النادي الأدبي، الإحساء.
 - ٤- مظاهر في شعر طاهر زمخشري، د. عبد الله باقازي، دار الفيصل، الرياض، المملكة العربية السعودية.
 - ٥- المكان في شعر طاهر زمخشري، سلمى محمد باخشوان، رسالة ماجستير ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
 - ٦- دلالات الطبيعة في شعر طاهر زمخشري، عفراء بنت عثمان الحسون، مجلة الدراسات العربية، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، مصر، ٢٠١٧م، ص ١٠٤٩.
- وبالقياس إلى الدراسات السابقة، فإن هذا البحث يكتسب أهميته، ويتميز عنها بكونه لا يتوقف عند دراسة الاتجاه الرومانسي في شعر طاهر زمخشري، وإنما يتتبع أثر المدرسة الرومانسية في شعره ورصد هذه المؤثرات التي تتمثل في اتصال الشاعر بتلك المدرسة عن طريق الترجمة والقراءة والتأثر بشعراء الرومانسية العرب أمثال أبي القاسم الشابي وعبد الرحمن شكري وإبراهيم ناجي وغيرهم.

وإذا كانت الدراسات السابقة قد تناولت شعر طاهر زمخشري، فإن إنتاجه الغزير لا يتيح للباحث الإحاطة بأبعاد المذهب الرومانسي، وربما أسلمه ذلك إلى شيء من التسطيح والعمومية، ولذلك فإن هذا البحث أثر أن

يركز على دراسة ديوان واحد هو (ألحان مغترب) بوصفه أكثر دواوينه تمثيلاً للتأثر بالمدرسة الرومانسية، وهو ما يجعل الدراسة أكثر عمقا وتركيزا واستخلاصا للنتائج.

ويوظف البحث المنهج الوصفي التحليلي لكونه أكثر المناهج ملائمة لدراسة الظاهرة وتحليلها.

مدخل:

كان للمدرسة الرومانسية الغربية تأثير واضح في الشعر العربي لاسيما بعد حركة التجديد التي طرأت على هذا الشعر في القرن العشرين، فقد ترجم كثير من الشعر الغربي الرومانسي إلى اللغة العربية، وكان لجماعة "أبولو" في مصر إسهام بارز في هذا المجال، «ففي مبادئها دعوة صريحة إلى الأخذ عن الشعر غير العربي ثم قطعت أشواطاً في ذلك حتى وصلت إلى نشر شعر بالإنجليزية لشعرائنا العرب»⁽¹⁾.

وتمثل تأثير الشعراء العرب بالمدرسة الرومانسية الغربية عن طريقين، أحدهما أن كثيراً من الشعراء العرب كان يستطيع الوصول إلى العمل الإبداعي في صورته الأصلية عن طريق مباشر لإجادته اللغة الأجنبية. أما الطريق الآخر، فكان الشاعر العربي يتأثر بالترجمة في حالة جهله باللغة الأجنبية- من خلال التأثر بالمضمون أو الموضوعات أو الصور مثلما تأثر أبو القاسم الشابي والتيجاني يوسف بشير والهمشري بما كان يترجم في شعر في مجلة أبولو.⁽²⁾

وقد كان طاهر زمخشري من أولئك الشعراء الذين تأثروا بالمذهب الرومانسي الغربي من خلال ما قرأه من شعر مترجم ومن كتب ومؤلفات، وكانت الفترة الزمنية التي عاشها في مصر ذات أثر كبير في اطلاعه على ترجمات الشعر الرومانسي الغربي، والتأثر بشعراء الرومانسية العرب لاسيما جماعة أبولو والديوان.

تأثير المدرسة الرومانسية في شعر طاهر زمخشري:

يُعَدُّ طاهر زمخشري أحد أدباء جيل الرعيل الأول الذين أسهموا في تأسيس النهضة الأدبية في المملكة العربية السعودية.

وقد أتيج لطاهر زمخشري أن يعيش فترة من حياته خارج بلاده، فاستقرَّ في مصر عدة سنوات، وتهيأ له في تلك الفترة أن يفتح على التيارات والمذاهب الجديدة في الأدب، واقترب وجدانياً من الشعراء الذين تأثروا بالمدرسة الرومانسية الأوروبية، لاسيما جماعة أبولو بشعرائها المشهورين أمثال علي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل وأحمد زكي أبو شادي وأبي القاسم الشابي وغيرهم.

كما تهيأ لطاهر زمخشري أن يقرأ روائع الشعر الرومانسي معرباً، فتأثر به وتجاوبت أسسه ومعالمه مع تكوينه بوصفه إنساناً مرهف الحس، يعشق الجمال، ويهيم بالطبيعة.

ومن يقرأ شعر طاهر زمخشري يدرك مدى تأثره بالمدرسة الرومانسية وشعرائها، فهو رومانسي عالي الشفافية، ويحذو حذو هؤلاء الشعراء في الإعلاء من شأن الخيال والعاطفة، وبرز أثر المدرسة الرومانسية - بجلاء- في موضوعاته وصوره وقاموسه اللغوي.

المبحث الأول

الإحساس بالاغتراب

من سمات الشخصية الرومانسية أنها تميل إلى الوحدة وتحس إحساساً عميقاً بالاغتراب، وعدم التكيف مع عادات المجتمع؛ لأن إحساسها بالمثالية يصطدم بالواقع المادي بكل سلبياته.

ويتخذ الاغتراب عدة مسميات، منها الغربة والوحدة والاعتزال والانفصال والانخلاع والتخلي والتجنب والابتعاد.⁽³⁾

وقد يختلط مفهوم (الاغتراب) بمفهوم الغربة، ولكن ثمة فرقاً بينهما، فالغربة هي «الشعور بالحنين القاتل للأهل والأحباب التي تتحكم فيه كثير من الظروف والأحداث، والغربة "غربة عن المكان بالسفر، أو النفي، أو

الهجرة"»⁽⁴⁾. وعليه فإن الاغتراب يختلف عن الغربة اختلافاً جوهرياً، إذ يعني اغتراب الإنسان عن واقعه وزمنه والهروب إلى الماضي من جهامة الواقع، فهو أساساً «حالة اجتماعية نفسية، فيها يمارس الفرد إحساساً بالمسافة أو الانفصال عن مجتمعه وجماعته»⁽⁵⁾.

والاغتراب -بهذا المعنى- هو ما يميز الشخصية الرومانسية، فهو إحساس يسيطر على تلك الشخصية ويدفعها إلى الانفصال عن المجتمع والإحساس بالغربة على الرغم من وجوده في مجتمعه، "وفي هذا النوع من الاغتراب يحس الفرد بالعجز عن إقامة علاقات اجتماعية ويفتقر إلى مشاعر الدفء والرفقة مع الآخرين"⁽⁶⁾. فالرومانسي يشعر دائماً بالغربة النفسية والاغتراب عن الواقع.

وقد يجتمع الإحساس بالغربة والاغتراب عند شاعر واحد، ويتباين بتباين الظروف والعوامل الاجتماعية والنفسية وهو ما نجده في شعر طاهر زمخشري لاسيما في ديوانه (ألحان مغترب) إذ جعل عنوان الديوان مخصوصاً بالاغتراب ورأى أن قصائده تنويعات لحنية وإيقاعية على هذا المفهوم.

فشعر طاهر زمخشري -في هذا الديوان- يعكس حالتي الغربة والاغتراب، فيعكس حالة الغربة المكانية حين ابتعد عن وطنه وأهله وأقام فترة زمنية في القاهرة، كما عاش مغترباً في الهند.

ويعكس شعره في الديوان كذلك إحساساً بالاغتراب النفسي ومعاناته وشعوره بوجود هوة كبيرة بين أحلامه وتطلعاته وآماله وبين واقعه.

الغربة المكانية:

عاش طاهر زمخشري عدة سنوات مغترباً بعيداً عن وطنه وأهله وأحبابه، وتوزعت سنوات غربته بين مصر والهند ولبنان، وكان طبيعياً -وهو الشاعر الرومانسي الحساس- أن تترك الغربة أثراً حزيناً في نفسه، فعبر في أكثر من قصيدة عن معاناته من الوحدة وشوقه إلى وطنه وأهله، ومن ذلك قوله: ⁽⁷⁾

ربوة	الأمسيات	والذكريات
فعبثت	الأيام	باللوعة الخرسا
والتباريح	في الحنايا	جراحات
والدجون	التي كنت	أرتأذ
لم يَعدْ	سُجْفُها	يزوّد أفكاري
والمقادير	جاذبتني	إلى التّيه
ورَجَعْتُ	الغداة	أنشر آمالي
ويميّن	الزمان	تَنسُجُ من حولي
وصفير	الهموم	يملاً سَمَعُ الليل
كنتُ في	لُجْها	أهيمُ بأفراحي
عُرْبَتِي	عنك	عَطَلْتُ أدواتي
ء	أمشي	مُكَبِّلُ الخطوات
وأطرافها	على	نَظْرَاتِي
على ضوء	زُهرها	النَّيَّراتِ
بغير	المشاهد	الكالحات
فزادَتْ	على النّوى	عثراتي
مَلِيءٌ	الوفاض	بالرغبات
وشاحاً	يلفني	في سُبَاتِ
دُعراً	يَضِجُ	في الظلمات
فهل	تحفظين	لي ذكرياتي؟!

فالشاعر يحنُّ إلى أمسياته في وطنه ويشكو من الغربة التي عطلته عن طموحاته وآماله ويصف ما أحدثته الغربة في نفسه حيث انطوت على اللوعة والحسرة وصار مقيداً مكبلاً الخطوات ويشكو تباريحه والهموم التي حاصرتة.

وتحتشد الأبيات بالصور والمعاني الرومانسية مثل (اللوعة الخرساء- صفير الهموم - المشاهد الكالحات - سمع الليل - الذكريات).

ويعصور الشاعر ما يعانیه من ألم الغربة فيقول:⁽⁸⁾

وَتَغَرَّبْتُ	في الحنايا	جحيماً
وَشَرَبْتُ	القذى	وما ضِقتُ ذرعاً
وأنا لا	أزال	أحملُ آلامي
يتلّهى	بأعظمي	النخرات
بالذي	قد لَقِيتُهُ	من شتات
ويَحْنُتُ	من خطاي	ثباتي

وسألني متى سخرت بأوهامي أمانني في صميم الحياة

إن الاستهلال بالفعل الماضي (تغربت) يؤكد إحساس الشاعر بالغربة، وهي تقترن عنده بالجحيم، ويؤكد هذه المعاناة بالصورة الاستعارية (شربت القذى) ويصف الغربة بـ(الشتات)، ويشكو آلامها التي تلازمه، وينحسر على المغاني والمعاهد التي ترعرع في أحضانها، ولكنها أنكرته لطول غيابه عنها.⁽⁹⁾

وَأَنَا لَمْ أَزَلْ أَغَالِطُ نَفْسِي	بَبْرِيقٍ تُشِيعُهُ	بَسْمَاتِي
وَالْمَغَانِي الَّتِي تَرَعَّرَعُ عَوْدِي	فِي حَمَاهَا	أَغْنِيَاتِي
أَنْكَرْتَنِي وَلَمْ تَدْعُ لِي فِينَا	فَتَوَجَّعْتُ فِي	صَمِيمِ الْحَيَاةِ

ومن مظاهر الإحساس بالغربة ما نجده في قصيدة بعنوان (وداع) كتبها إلى ابنته المغتربة بأمريكا، وفيها يقول:⁽¹⁰⁾

أَوَدَّعَ مِنْ بَالْحَاطِي رَوَاهَا	وَيَحْمِلُ رَجَعُ أَلْحَانِي هَوَاهَا
وَمَا زَالَتْ بِقَيْدِ الْعَيْنِ مَتِي	وَيَلْدَعُنِي التَّوَجُّعُ مِنْ نَوَاهَا
وَأَشْعُرُ بِالْحَرَائِقِ فِي ضُلُوعِي	مِنْ الْأَشْوَاقِ يَعِصِفُ بِي لَهَا
وَلَمْ تَرَحُلْ وَيَسْبِقُنِي حَنِينٌ	إِلَيْهَا: كَيْفَ لَوْ حَجَبْتُ سَنَا
وَبِاسْمِي كُلَّمَا هَمَسْتُ وَنَادْتُ	عَلَيَّ أَجَبْتُ مِنْ فَرْحِي نَدَاهَا
وَأَسْمَعُ صَوْتَهَا لَحْنًا حَبِيبًا	يَدْعِدُعُ بِالْفَتُونِ رَوَى صَبَاهَا
وَفِي أَحْضَانِهَا رَقِصْتُ غِرَاسُ	هِيَ الْأَمَالُ صَافِحُنِي جَنَاهَا

والأبيات تعكس مشاعر الأبوة الصادقة وعاطفتها الجياشة وعمق إحساس الشاعر بالغربة وألم الفراق لابتعاد ابنته عنه وتؤدي الصورة دوراً بارزاً في تجسيد هذا الإحساس كقوله (يلدعني التوجع من نواها) وهي استعارة ذات دلالة على مدى الألم الذي يحاصره لفراق ابنته، وكذلك قوله: (أشعر بالحرائق في ضلوعي)، وهي صورة معبرة عن قسوة الفراق وضاعف منها استعماله (الحرائق) بصيغة الجمع.

الغربة النفسية:

وهي إحساس يعتري الشخصية الرومانسية ويلازمها، فهي تعيش في صراع بين الواقع والمثال، وتحن – دائماً- إلى الماضي، وقد صدر طاهر زمخشري عن هذا الإحساس في ديوانه (ألحان مغترب)، ومن ذلك قصيدة بعنوان (حنين) قال فيها:⁽¹¹⁾

بِالْحَنِينِ الْقَدِيمِ فِي عُمُقِ نَفْسِي	لَمْ أَزَلْ حَائِراً أَهْيَمُ حَزِينَا
فَرَمَى بِي إِلَى الْعَرَاءِ قَضَاءُ	مِنْ تَصَارِيفِهِ دَرَفْتُ الشُّؤُونَا
بَيْنَ أَمْسٍ طَوِيْتُ فِيهِ اللَّيَالِي	فِي مَآسٍ تَحَزُّ مَتِي الْوَتِينَا
وَعَدٍ أَرْتَجِي لِقَاءَ وَلَكِنْ	أَغْمَضَ الْيَأْسُ عَنْ سَنَاءِ الْجُفُونَا

يشير الشاعر هنا إلى ما سماه (الحنين القديم)، وهو إحساس يلزم الشخصية الرومانسية، وهذا الحنين يدفعه إلى الحيرة والحزن، وإلى التمزق بين الماضي والحاضر.

ويمضي طاهر زمخشري في قصيدته فيقول:⁽¹²⁾

يَتَجَافَى عَنْ الْمَضَاجِعِ جَنَّبِي	وَالْمَاقِي تَسْخُ دَمْعاً هُنُونَا
مِنْ هُمُومٍ مَبْعَثَرَاتٍ حَيَالِي	وَقَتَامٍ أَعِيشُ فِيهِ سَجِينَا
وَيَضِيقُ الْفَضَاءَ حَوْلِي فَالْقَى	فِي الدِّيَاجِي مِنْ الشُّؤُونِ حَدِينَا

يطالعنا الشاعر بصورة مستمدة من النص القرآني في قوله (يتجافى عن المضاجع جنبى) في إشارة إلى الآية الكريمة (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)، وقد صرف طاهر زمخشري المعنى إلى وصف غربته النفسية ومعاناته، وأثارها على جسده، فهو مؤرق مسهّد لا يستطيع النوم ولا يرتاح له جنب، وتنهمر الدموع من عينيه، وتحاصره الهموم، وتقوده الغربة النفسية إلى الإحساس بأنه يقبع في الظلام سجيناً ويعاني من جراحه النفسية. وهذا الإحساس كثيراً ما تتردد أصداؤه في شعر الرومانسيين.

وتحتشد القصيدة بأحاسيس الاغتراب وأصداء الغربة النفسية، كقول الشاعر: (13)

وَعَوِيلُ الْأَلَامِ بَيْنَ ضُلُوعِي	يُرْجِعُ الصَّوْتُ فِي الْفَضَاءِ أَنِينَا
مُتَخَنّاً بِالْجِرَاحِ مِنْ قَسْوَةِ الدَّهْرِ	أَعَانِي مِنَ الشَّقَاءِ فُتُونَا
فِي خُضَمِّ تَمُوجٍ فِيهِ الدَّوَاهِي	وَبِأَثْبَاجِهِ افْتَقَدْتُ السَّيْنِيَا
وَالْمَجَادِيفُ بِاصْطِبَارِي تَلْهُو	وَالرَّزَايَا تَسُوقُ نَحْوِي الْمُنُونَا
فَإِذَا أَوْغَلَ الشِّرَاعُ بِشَوَاطِي	أَجِدُ الْعِزْمَ فِي إِهَابِي مُعِينَا
أَوْ إِذَا لَاحَ لِي مِنَ الشَّطِّ وَمَضُّ	بَسَطْتُ حَوْلَهُ الظُّنُونُ دُجُونَا

أبدع الشاعر في اقتناص الصور الرومانسية التي تجسد عمق جراحه النفسية كما نرى في صورة (عويل الآلام التي تسكن ضلوعه وترجع صوت الأنين في الفضاء) وهي من الصور التي تعتمد في تشكيلها على حاسة الصوت وما تعكسه من دلالات. كما يتجسد هذا الإحساس حين يبدو الشاعر (متخناً بالجراح) وصورة الأمواج النفسية المتلاطمة المحملة بالدواهي، وتمتد الصور البحرية حين يصف الشاعر المجاديف وهي (تلهو) (الشراع) وهو يوغل به، وصورة شاطئ البحر الذي يلوح له ولكنه يظل بعيداً سادراً في الظلام.

والإحساس بالاغتراب يفضي بالذات إلى الاكتئاب والتشاؤم وهو ما يعبر عنه طاهر زمخشري في قصيدة يقول فيها: (14)

لَمَّا اخْتَبِرْتُ اللَّيَالِي قَلْتُ: زَائِفَةٌ	وَكُنْتُ فِي زَيْفِهَا أَخْتَالُ نَشْوَانَا
وَكُنْتُ أَشْقَى بِهَا شَجَوّاً يُمَرِّقُنِي	فَصَرْتُ أَهْفُو لَهَا شَوْقاً وَتَحْنَانَا
وَأَعْبَرُ الْعَمَرَ فِي تِيهِ أَجُوبُ بِهِ	سَوْدَ اللَّيَالِي كَنِيْبِ النَّفْسِ حِيرَانَا
أُرُومُ مِنْهَا انْفِلَاتاً وَهِيَ تَدْفَعُنِي	إِلَى مَتَاهَاتِهَا فَارْتَدَّ حَرَانَا
أَغْوَصُ فِيهَا بِأَقْدَامِي عَلَى حَسَكِ	أَحْسُ مِنْ وَقْعِهِ فِي الرُّوحِ نِيرَانَا
وَكُنْتُ أَرْجُو بَأْنَ يُفْضِي السَّبِيلَ إِلَى	غَرَسِ الْأَمَانِي الَّذِي أَلْقَاهُ فِينَانَا
فَعَدْتُ لَا أَمْلُ يَنْدَى بِبَارِقَةٍ	سَوَى السَّرَابِ الَّذِي اسْتَنْبَعْتُ صَدْيَانَا
وَعَادَ بِي الْوَهْمُ لِلْأَشْجَانِ أَسْكُبُهَا	مِنْ ذُوبِ قَلْبِي فَجَاشَ الدَّمْعُ هَتَانَا

والأبيات واضحة الدلالة على تغلغل الإحساس بالكآبة والتشاؤم في نفس الشاعر، فقد أحس أنه يمضي العمر في تيه وحيرة وظلام نفس واكتئاب، ويحاول عبثاً أن ينفلت من هذا الحصار ولكنه يظل سادراً في التيه ويبدو وكأنه يمشي على الأشواك ويبلغ هذا الإحساس الموحش مداه حين يحس بالنيران تحاصر روحه وأنه لم يجن من رحلته في الحياة سوى السراب.

ويعبر طاهر زمخشري عن إحساسه بالاغتراب أصدق تعبير، مدركاً المعنى الحقيقي للاغتراب الذي يعانيه الشاعر الرومانسي، فهو يعاني من هذا الإحساس برغم وجوده في وطنه وبين أهله. يقول: (15)

وما تغرَّبْتُ عن أهلي وعن سَكَنِي
أهيمُ فيه فلا أهفو لبارقةٍ
ويجمع الليلُ أطرافَ السهومِ على
وفي حواشيه أشباحٌ مبعثرةٌ
لكن يَنازعني إحساسٌ مغتربٌ
إلا وجَدْتُ بما يَجَنُّ من أربي
نَوازعي ويغطي الأفقَ بالحجبِ
تلهو بقلبٍ حبيسٍ النبضِ مُنْشَعِبِ

هذا هو المعنى الحقيقي للاغتراب النفسي الذي يحاصر الشاعر الرومانسي، وهذا الإحساس يحاصره ويلزمه ويفضي به إلى اليأس والانقباض، برغم أنه يعيش بين أهله وأحبابه. ويؤكد الشاعر هذا المعنى في قصيدة أخرى، كقوله: (16)

قد تغرَّبْتُ لا عن الأهل والصحب
في مداها الفسيح أسكبُ آلامي
فقد عشتُ في الربي النضرات
ويجري اللهيبُ في عَبراتي

فجمال الطبيعة والروابي الخضر النضرات لم تفلح في إخماد نيران الإحساس بالاغتراب النفسي، فهذه الطبيعة الخلابة صارت في عيني الشاعر - مسرحاً يسكب فيه آلامه وأحزانه. إن أقسى أنواع الغربة ليست الغربة المكانية ولكنها الغربة النفسية، وهي التي تهيمن على إحساس الشاعر ويعبر عنها في قصائد كثيرة، ومنها قصيدة (نفثة) التي يقول فيها: (17)

قد حَمَلْتُ الأسي وفَاضَ إهابي
وأنا لم أزلُ أَلْمِمُ أطرافي
فطويْتُ الأعوامَ أزحفُ في التيه
تَنَوَّرَ عن المسالكِ أرابي
وشراعي الرقائفُ صبري ومجدافي
كلما أوغلَ الزمانُ بشوطي
مُتَخَنًا بالجراحِ يَهْصِرني الداءُ
بعد أنْ ذاب في الشجون شبابي
وأمشي مُكَبَّلًا بالصَّعَابِ
وزادي، ومَرْكَبِي أوصابي
ويحتثُ من خطاي غلابي
ثباتي، وفي الحنايا رغبتي
نَهَشْتَنِي سَوْدُ الليالي بناب
ويسطو على الفؤاد المُدَابِ

إن الإحساس بالاغتراب يقترن في نظر الشاعر بالتيه، ويكبله بالصعاب، ويعمد إلى الصور البحرية التي تتردد كثيراً في ديوانه؛ صورة مركب الآلام وشراع الصبر ومجداف التجلُّد، ويردد صورة الليالي السوداء التي يتخيلها وحوشاً تفترسه بأنيابها فيبدو متخناً بالجراح.

ويعود الشاعر فيؤكد إدراكه لمعنى الاغتراب فيقول: (18)

وتَغَرَّبْتُ في الحياة بالآمي
وشربتُ القذى على نخب إخفاقي
عاقرتني مع اليفاعه أحداث
فإذا بالصِّبَا بكفي هباءً
بَعَثَرَتْهَا على الخطوب ليالٍ
وصاحبْتُ شِفْوتِي في اغترابي
بكأسِ سَخِيَّةٍ بالشربِ
أراها لما تزل في ركابي
وإذا العمرُ حَفَنَةً من ترابٍ
تَتَعَاوَى مسعورة كالذئاب

الغربة - كما عاشها طاهر زمخشري - هي غربة الحياة، وغربة الروح، وغربة الإحساس بالشقاء، والإخفاق واليأس، وهو ما دفعه إلى التشاؤم والاكتئاب والإحساس بأن العمر ليس سوى حفنة من تراب وأن الليالي ذئاب متوحشة تفترس آماله وأحلامه.

المبحث الثاني

عشق الطبيعة

هام الشعراء الرومانسيون بالطبيعة وأحسوا بالنشوة بين أحضانها؛ لأنهم كانوا يميلون إلى الخلوة واعتزال الناس، فكلفوا بالغابات والرياض والبحار وموسيقى أمواجها، وأخذوا يستوحون أسرارها ويستلهمون جمالها يرفدهم في ذلك رهافة أحاسيسهم وشبوب عاطفتهم فقد « رأوا فيها الأم الرؤوم التي يلوذون بأحضانها هروباً من الواقع المرير، وفراراً من الأحداث، ودعواها أهم الحنون، وامتزجوا بها، ولم يكتفوا بوصفها من الخارج، بل غاصوا في أعماقها، وأدركوا أسرارها، وما وراء المظاهر الخارجية منها، وتوصلوا إلى روحها». (19)

وقد حذا طاهر زمخشري حذو الشعراء الرومانسيين في الولع بالطبيعة وعشق مظاهرها والتغني بها، ومناجاتها، وفي ديوان (ألحان مغترب) قصائد كثيرة في هذا الموضوع، فقد عشق طاهر زمخشري الرياض والورود والأزهار وتغنى بالبحر والربيع وخضر الروابي ونجى القمر واتخذ الليل صديقاً وأنيباً.

وتنبئ الطبيعة في شعره عن نفسها، وقصائده في دواوينه المختلفة معرض عظيم لمظاهرها، فهو أحياناً يقصد إليها، وأحياناً أخرى يوظفها للدلالة عما يعانیه ويحس به ويختلج في نفسه شأن سائر الشعراء الرومانسيين». (20)

● الرياض:

وجد طاهر زمخشري في الرياض الأنيس الذي يؤنس وحدته، فوقف أمامها متأملاً ومصوراً ومنصهراً معها، ورسم لها لوحات أخاذة، ومن ذلك قوله: (21)

لأغراسها	زاكي	الدماء	رؤاء	وقد كان لي في مَرْبَعِ الحسن "روضة"
وللزهر	فيها	لا يزال	شذاء	تأهّى بها كفّ الزمان فأجْدَبَتْ
لترجع،	وهي	"الروضة	العناء"	وجبّت لأروي ثَرْبَها بمدامعي
وعُدْتُ	وعيني	بالقذى	عشواء	فجفّت دمعي ما لقيت من الأسى

فالشاعر لا يقف أمام الطبيعة هنا وقفة خارجية، ولكنه يتوحد معها، ويشاركها أحاسيسها، فهو يقف أمام روضة كانت مثمرة مزهرة ولكنها تعرضت للجذب وإن كانت لم تزل تحتفظ بشذى أزهارها، وقد حزن الشاعر لأجلها، فأخذ يرويها بدموعه لتعود كسابق عهدها (روضة غناء)، ولكن هيهات، فقد جفّت الدموع في عينيه لما رآه من الأسى وعاد وعينه قد امتلأت بالقذى.

والشاعر يصدر هنا عن إحساس شاعر رومانسي مرفه الحس، يمتزج بالطبيعة ويتوحد معها ويأسى لها، ويشعر بما تشعر به.

وكثيراً ما يلتفت الشاعر إلى جمال الورود وهي تعبق بالشذى، فيطيل الوقوف أمامها، مندمجاً معها. ومن ذلك قوله في قصيدة بعنوان (ورود): (22)

فوق هام الغصون نامت وروء	تسكبُ العطر في شفافِ الدجون
وارتوى بالعبير منها فؤاد	راح يشدو مغرّداً للسكون
في ظلال تناوحت ذكريات	في مداه مخنوقة بالأنين
وعلى مذبج الليالي قضاء	تتأهّى سهاؤه بالوتين
وغبار السنين يُغمضُ أجفاني	ويُلقي عَفّاره في عيوني
وأنا بالرضا أداعب قيثاري	لنَبْقَى على الحياة لحوني
ألثم الورد وهو يصدخ بالأنفاس	جذابة الشذى بالفتون
ويناجي بين الخمائِل أطيافاً	تناغي لواعجي بالحنين

والأمانى التي أعانق أحلاها تهادت مياسة في الحزون
والورود التي تجدد أفرحي تداوي بالعطر منها شجوني

يعتمد الشاعر في تشكيل لوحة الورود على عنصر التصوير، فيتخيل الورود وقد نامت فوق هام الغصون وقد أخذت تسكب عطرها في شفاه الظلام، ويتدخل الشاعر في تلك اللوحة، فيرتوي بالعبير ولكنه يستدعي ذكرياته الحزينة ويتغلب على أحزانه بالرضا بواقعه ليظل مغرداً بقيثارته، ويلوذ بالطبيعة لينسى أحزانه، فيناجي الخمائل، ويتعلق بالأمانى، ويرى في الورود ما يبهجه ويجدد أفراحه ويداوي شجونه. فالطبيعة هنا مثير ومدادٍ لأحزان الشاعر، وهي التي تبعث الأمل في نفسه.

ويجد الشاعر في الطبيعة ما يذكره بأحبابه، يقول: (23)

أنا في البرج من ربي لبنان أتملك نضرة في المغاني
كلما العندليب صفق حولي أو تغنى بأعذب الألحان
خلته صوتك الحبيب ينادي روح صبّ بهفو لصفو التداني
ولأصدائه دبيب بنفسي كالحميا تهز مني كياني

إن صوت العندليب يهز أحاسيس الشاعر، ويذكره بصوت الحبيب وهو يناديه، ويحس بأصدائه تدب في كيانه دبيب الخمر في جسد شاربها.

وقد تغدو الطبيعة مسرحاً للعشق، فيلتقي الشاعر بمن يحب في رحابها حيث الجمال الخلاب. يقول: (24)

قال لي: والورود تسبح في النهر وسرب الطيور يمشي اختيالا
وشعاع الأصيل يسترق الخطو ويلقي على الضفاف جلالا
وشراع الأحلام في مَعْبَر الأيام مجدافه يبث الجمالا
وذراع الدجى على الضفة الأخرى يُواري بين الغيوم الهلالا
وبميني تلهو بخصلة شعر بسطت فوق وَجَنَّتِيهِ ظلالا
وعلى ثغره المورّد أطياف تُعاطي الحديث خمرأ حلالا
ويمدد الكؤوس بالنظرة الخجلى وألحظه تُعيد السؤالا
هل شربت الخمر؟! قلت: بطرف صاغ من سحره الفنون خيالا
رُحْنِي الألاحظ منه بإغراء وما زلت أشتهي أن أنا لا
فاذا بالجفون تسكب همسا زادني رجعه الحنون اشتعالا

إن عناصر الطبيعة تتشكل ببراعة في تلك اللوحة التصويرية حيث يجلس الشاعر على ضفاف النيل، ويتخيل الورود وهي تسبح في النهر، وقد بدت أمامه أسراب الطيور وهي تمشي مختالة، وشعاع الأصيل يكسو الضفاف جلالا وقد توارى الهلال أمام سطوة الغيوم. وفي هذا الجو الشعاري يبدو الشاعر العاشق، وهو يلهو بخصلة شعر وبميني تلهو بخصلة شعر، ويستمع بحديثها العذب الذي يسكره، وهنا تباغته الحبيبة بسؤال: "هل شربت الخمر؟" فيجيب بذكاء إن الجفون هي التي أسكرته.

● الغاب:

يشغل الغاب حيزاً كبيراً في الخطاب الرومانسي، فقد وقف أمامه أقطاب الرومانسية في أوروبا، واتخذوه ملجأ وملاداً يلودون به هرباً من قسوة الواقع، وتأثر بهم الشعراء الرومانسيون العرب، فأفسحوا للغاب مكاناً في شعرهم، وترددت صورته في أشعار كبار الرومانسيين أمثال ميخائيل نعيمة وجبران وأبي القاسم الشابي وأحمد زكي أبي شادي ومحمود حسن إسماعيل وغيرهم.

ولم يفت طاهر زمخشري أن يقف أمام الغاب متأملاً مناجياً، ومن ذلك قصيدة مطولة في ديوانه (البحر مغترب) بعنوان (في الغاب) قال فيها: (25)

ليتني يا خمائل الغاب أرتأد	مداك الفسيخ بين الغصون
ليتني كالطيور في جوك البارد	أشدو لوحدي بأيني
ألثم الطل كلما صبّه الورد	وأروي مشاعري بالمزون
لا أرى فيك حسرة تلهب الحقد	ولا شقوة تحز وتيني
لا ولا يُمرض التبلد وجداني	ولا أكتوي بنار الظنون
لا ولا تقتل المواجد إحساسي	ولا توظ المآسي شجوني
لا ولا تنهض الضعيفة بالأحقاد	تحتت خطوها في جنون
فأنا وهنا أعب متى النفس	وقد وشح المراح يقيني

يخاطب الشاعر خمائل الغاب ويخلع عليها أحاسيسه ويتمنى أن يكون في جوّه الثلجي كالطيور يشدو بالآلامه في عزلته، وأن يتخلص من إحساسه بالشقاء، وأن يتطهر ويتجرد -كما تجرد الغاب- من الظنون والمآسي وما يواجهه من أحقاد وضغائن، فكل ما في الغاب يبعث المرح والسعادة في نفسه.

ويعمد الشاعر في القصيدة ذاتها- إلى الإلمام بالتفاصيل والجزئيات فيما يشاهده في الغاب، فيقول: (26)

والنفاف الأشجار ينسجه الليل	ستاراً من العيون يقيني
وشأبيب هاطل ناغم الإحساس	أحسو من فيضه بيميني
فأحس الرواء ينعش أوصالي	ويجري كعاصف مجنون
وتدب الحياة تنهض بالغافي	وتحنو على شجاي الدفين
وطيوف الخيال تملأ أكوابي	سُلفاً مصقفاً بالفتون
والغصون التي تلهت بها الفتنة	تخني رؤوسها في مجون
والأزاهير جاثيات عليها	تنساقى قطر الندى في السكون
والشذا عطر يناغم إحساسي	ويجري عبيره في لحوني
فأناغي الأطياف بالنغمة الحلوة	تسري مع النسيم الحنون
وصداه النشوان يغمر بالإيناس	أفاق قلبي المحزون
وتمدُّ الظلال من ملتقى الأغصان	فيئاً أبث فيه حنيني

ويطيل الشاعر الوقوف أمام ما في الغاب من مظاهر الجمال، فيرسم لها صوراً أخاذة، ولا ينظر إليها نظرة خارجية منفصلة عن ذاته، بل يمزجها بما يحس به في أعماقه، ويشاركها مشاركة وجدانية، فيرى في النفاف أشجار الغاب ستاراً ينسجه الليل ليقبه من عيون المتطفلين، ويرى في زخات المطر إحساساً ناعماً يطهره ويشعره بالانتعاش، فتدب الحياة من جديد في أوصاله، ويرى في الغصون والأزاهير والشذا مثيرات للنشوة تغمر قلبه الحزين بالطمأنينة والإيناس، حتى الظلال التي تمتد من الأغصان يراها الشاعر مجالاً يبت فيه ما يشعر به من حنين.

ويظل الشاعر منجذباً إلى الغاب بمظاهره وعناصره وما يكتنفه من جمال وسكينة تؤنس النفس، فيقول: (27)

والنجوم التي توارث وراء الأفق	تفضي بسرّها المكنون
للدجى، للوجوم، للألم الغافي	على أذرع الظلام الأمين
للفضاء الممتد يغفو به الكون	وللصمت لاهتاً في الحزون
للسيم العليل شاع به العطر	وناغى العبير منه شجوني

لغصون التي يحاضنها الغاب	ويلهو بزهرها	المستكين
للزهور التي تُعطر بالأنفاس	أجواء عالمي	المفتون
للزواء الذي تندث به الأزهار	من هاطل بدمع	هتون
وأنا ساكنٌ أصفق للحب	وأطوي على رؤاها	سنيي

يتأمل الشاعر الغاب حين يحلُّ عليه الظلام، فيُعمل مخيلته النشطة الخَلاقة، يتخيل النجوم شخوصاً تفضي إلى الظلام بأسرارها، ويرى الفضاء الواسع الممتد وقد غرق في السكون، بينما يمتزج عطر النسيم بأشجان الشاعر، وفي هذه الأجواء الساحرة الخلابة يحس الشاعر بالسكون والطمأنينة ويهفو إلى الحب.

وعلى هذا النحو لا ينظر الشاعر إلى الغاب كمظهر طبيعي منفصل عن ذاته، بل يمتزج به، وينصهر معه، ويرى فيه صورة من ذاته وأحاسيسه، وهو ما يؤكد عمق تأثيره بالرومانسية.

● البحر:

يقف الشاعر من البحر موقفاً جمالياً، يثير إعجابه وانبهاره، فيراه بشوشاً يتدفق بالصفاء والأمان، فكم عروس سيحت بين أمواجه وعادت ذات جاذبية وبهاء، ويراه فاتناً ليس في إغرائه- وإنما بأمواجه العذراء، التي تعبر بالشاعر المحيطات إلى ما وراء الحدود للبحث عن الحلقة المفقودة التي يريد أن يصل إليها، يقول: (28)

أيها البحرُ يا بشوشَ المرئي	يا دَفوقاً على المدى بالصفاء
كم عروسٍ على مياحك عامتْ	ثم عادت جاذبةً بالبهاء
وعيونٍ على مداك ترامتْ	ترقبُ الحسنُ في وشاحِ هباء
فاتنٌ أنت لا بفنك في الإغراء	لكن بموجتي العذراء

ومما يرتبط بالبحر حديث الشاعر إلى الصخرة، وله في ذلك عدة قصائد، منها قوله: (29)

لا تثيري بمن أذاك الظنونا	أنا ذاك الفتى الذي تعرفينا
فشواظ الأيام يقفو خطانا	وسياط الآلام ينهب فينا
كلنا يكرع الهموم ويسقى	ويقيم المنون خدناً خدينا

فالشاعر هنا يبث شكواه إلى الصخرة ويفضي إليها بهوموم، ويحدثها محادثة الصديق، ويخلع عليها أحاسيسه، فيتخيلها تشاطره الآلام.

ولعل طاهر زمخشري -في حديثه إلى الصخرة- قد استلهم قصيدة (صخرة الملتقى) للشاعر خليل مطران، وكذلك قصيدة (الزنبقة الداوية) (30) لأبي القاسم الشابي: (31)

أزنبقة الصفح مالي أراك	تعانقك اللوعة القاسية
------------------------	-----------------------

فالشعراء الرومانسيون يتوحدون في المشاعر وينهلون من بئر واحدة.

ولطاهر زمخشري قصيدة أخرى يناجي فيها الصخرة، يصدر فيها عن إحساس مناقض لإحساسه السابق، فيبدو فيها متفائلاً بأيامه المقبلة. يقول: (32)

صخرتي الصمَّاء عند المغرب	بعد عامين سألقاك طروباً
سوف لا أسأل عن أمسي الذي	كُنْتُ باللوعة أطويه كذيباً

لا ولا الماضي الذي مَزَّقني
لا ولا أسأل عما شَقَّني
فلقد مات بأعماقي الأسى
صخرتي الصماء ما زلت بما
وسألقاك وفي صدري الهوى
وسيشدو مِزْهري ألحاني كما
ويغني بالذي أَرْجَعني
وهو في روحي وشریان دمي

وكساني من مآقيه سُحوبا
وأذاب الروح آهاً ونحيبا
بعد أن طَوَّقْتُ في الدنيا غريبا
في مدى أَفْوَكَ أَسْتَنْشِق طيبا
لا يرى إِلَّاكِ خِلاً وحبيبا
كان من قَبْلُ ويستوحي الغُروبا
لمغانيك وأهداني النسيبا
صَبُوءَ فاض بها القلبُ وجيبا

يخاطب الشاعر تلك الصخرة الصماء وهو جالس أمامها وقت الغروب فيراها (خلاً وحبيباً) ويعدها باللقاء بعد عامين وقد تبدلت أحواله من الضيق والكآبة إلى الطرب والبهجة، بعد أن شهدت تلك الصخرة معاناته في الغربة وعزلته ولكنه يتشبث بالأمل في غدٍ يعود فيه إلى الغناء والصفاء.

وفي قصيدة أخرى بعنوان (الصخرة) يقف الشاعر أمام صخرة أشار في مقدمة القصيدة أن اسمها "روشة" وعليها ينتحر الشبان والشابات حيث يلقون بأنفسهم منها إلى البحر. يقول: (33)

يا صخرة ربضت بأروع بقعة
كم ذا شهدت مآسياً وفواجعاً
هلاً زحفت إلى الخضم غريقةً
أزهقت أرواحاً تهاوت للردى

نشر الجمال على مداها طيبا
وفتحت منك إلى الفناء دروبا
يوماً ويكفي ما أتيت ذنوباً!
من جانبيك وما دملت ندوبا

يخاطب الشاعر تلك الصخرة التي شهدت كثيراً من المآسي ويحمل عليها متمنياً أن تزحف إلى خضم البحر لتلقى مصير من زهقت أرواحهم عليها، ويرأها وقد أثقلتها الذنوب، قد اتصفت بالقسوة، فموقف الشاعر من الصخرة نابع من حالته النفسية، فيراها من خلال ذاته -لا كما هي- خارج نطاق التراث.

● النيل:

وللشاعر عدة قصائد يخاطب فيها النيل، كانت نتاج إقامته بمصر، وقد تغنى به وأفاض في وصف ضفافه وأمواجه ومياهه العذبة الصافية. يقول في قصيدة بعنوان (على الضفاف): (34)

وَيْكَ يا نيلُ قد سموتَ فَحَارَا
وعلى موجك البشاشةُ تزهو
والشذا يغمرُ المربعَ أنفاساً
والنميرُ الذي بصفوك يشدو
والدراري التي بأفْوَكَ أَمسى

مذ حباك الجمال بالسَّدى غارَا
يترامى بها السنا معطارا
نُعْاطِي بعطرها الأَطيارَا
لِعَذَابِ المني عَدَا مِزمارَا
بالهوى فيك ومضها يتبَارَى

فالشاعر يتغنى بجمال النيل وبأمواجه وما حوله من خضرة وأزهار تنتشر شذاها، وما على غصون الشجر على ضفافه من أطيّار وما يجري فيه من مياه عذبة وما ينعكس على صفحة مياهه من أضواء.

ويعصف الشاعر -في قصيدة أخرى- لقاء جمعه بمن يحب على ضفاف النيل، فيقول: (35)

والتقينا على الضفاف
وبهمس الجفون رَجُعُ أناشيد
وتساءلت مَنْ أكون فلم

وَشَيْ كسا به شَقْنِيك
وزهرُ الربيع في خَدَّيك
أدر بماذا رَدَّ الفؤادُ عليك

إِذْ تَحَدَّثْتُ عَنْ هَوَاكِ فَلَمْ أَفْلَحْ
نَظْرَةً تُلْهَبُ الْمَشَاعِرَ بِالْحُبِّ
وَالْفَتُونِ الْمَمْرَاحُ فِيكَ وَرَوْدُ
هُوَ قَلْبِي فَلْتَحْرِقْهُ إِذَا شِئْتَ
فَجَاءَ الْإِعْجَازُ مِنْ مُقَلَّتَيْكَ
وَتُبْقِي لَظَاهٍ فِي وَجْنَتَيْكَ
وَالْفِرَاشُ الْمَلْهُوفُ يَهْفُو إِلَيْكَ
وَإِنْ شِئْتَ فَاحْفَظِيهِ لَدَيْكَ

فضفاف النيل بسحرها مكان لقاء المحبين، وقد اكتفى الشاعر بالإشارة إلى الضفاف واستغرق في وصف تفاصيل اللقاء والتغني بجمال المرأة.

● الليل:

الليل – عند الرومانسيين- يحتشد بالأسرار ويثير التأمل وقد يهيج الأحزان وقد أثار الليل شجون شاعرنا، فقال في قصيدة حوارية: (36)

قال لي، والسكون يزحف في الليل	ويمشي	مُكَبَّلًا	بالظلام
وأنا ساهمٌ أصعد أنفاسي	وتغفو	بِرَجْعِهَا	الأمي
والوجوم الرهيب ينحر أيامي	ويقسو	على فُؤَادِي	الدَّامِي
والنجوم التي تُضيء مدى الأفق	تواري	وميضُهَا	في الغمام
وحفيفُ العصور في الروضة الغناء	يختالُ	بالشذا	المترامي
وخطى البدر فوق أجفاني الوسنى	تناغي	بِوَفْعِهَا	أحلامي
قال لي؛ والحياة بالألم الصارخ	تكوي	جَوَارِحِي	وعظامي
كيف تستلهم القوافي ومن أين؟!	وهل في	الخيالِ رِيّ	الظامي؟!
قلت والبسمة الحزينة مزماري	وأصداء	زفرتي	أنغامي
إنني في الحياة عابرُ درب	وبكف	القضاء أَلْقِي	زمامي
والفتون الذي يدغدغ إحساسي	أرى	في جماليهِ	إلهامي

يحتفي الشاعر هنا بتحديد الحيز الزمني للموقف، حيث يخيم السكون على المكان في الظلام، بينما يبدو الشاعر في حالة اكتئاب وحزن وشروود ووجوم وقد خلع أحاسيسه على مظاهر الطبيعة من حوله حيث توارى وميض النجوم وراء الغمام مما يوحي بالقتامة، واستقبل الشاعر سؤال صاحبه. وقد اكتوت جوارحه بالألم – كيف يستلهم القريض فأجابه بأنه عابر في دروب الحياة وقد أوكل القضاء زمام أمره.

● البدر:

وللشاعر وقفة مع البدر، فيناجيه ويتغنى به، ويراه مبعث المسرات وهو الذي يغزو جنح الظلام وينشر الضياء في الأرض. يقول: (37)

أيها البدر عشت في مسمع	الأيام	لحنًا	مُجَدِّدًا	للهمام
نتساقى على صداه المسرات	ونغزو	بالبشر	جُنْحَ	الظلام
وسرى خطوك الوئيد على الأرض	يبث	الفتون	في	الأنسام

ويحتفي الشاعر في قصيدة أخرى بالليلة القمراء فيقول: (38)

فتعالني نَعش مع الليلة	في	ظِلِّ	حبنا	البناء
فأغني والصفو يَنسُجُ أحلامي	وشاحاً	يَلْفُ	ذات	البهاء

أنت يا ملهم الأغاريد في النجوى
ويا مغزفي السخّي الأداء

فالليلة القمراء تحتضن الحب، وتشهد لقاء المحبين، وتزودهم بالجمال والبهاء.

وعلى هذا النحو كان للطبيعة حضور قويّ في ديوان (ألحان مغترب)، فوقف الشاعر أمامها مناجياً
ومناًملاً واندماج معها، فشاركته أفراحه وأحزانه، ولم يصفها وصفاً خارجياً، بل رآها من خلال ذاته وأحاسيسه،
وتلك سمة من أبرز سمات الشعر الرومانسي.

المبحث الثالث

عاطفة الحب

تُعَدُّ عاطفة الحب من أهم دعائم المذهب الرومانسي، حتى ليقول الشاعر الفرنسي فيكتور هوجو: «إذا خلا الكون من الحب انطفأت الشمس».(39)

وقد سار طاهر زمخشري على درب شعراء الرومانسية فتغنى بالحب وعاش له وأخلص لعاطفته وأحلّه محلاً أثيراً في دواوينه لاسيما ديوانه (ألحان مغترب) حيث تشغل القصائد التي تعكس عاطفة الحب مساحة واسعة فيه.

وقد عبّر طاهر زمخشري عن رؤيته للحب فقال:(40)

عشتُ للحبِّ وقيثاري شجوني	لحنه ينسابُ في صوتٍ أنيني
ويراني الناسُ أشدو مسعداً	بالرّضا والمعزف الحاني خديني
فالهوى عندي وقد في دمي	يتراعى قطراتٍ من عيوني

فالشاعر يجاهر بأنه عاش للحب وعزف أنغامه على قيثارته الشعرية، ولكن ألحانه تتسم بالحزن والأنين. ثم يصرح الشاعر برؤيته عن الحب، فهو -في نظره- لهيب واحتراق يجري في دمه وينساب قطرات من الدموع في عينيه، فالحب -عنده- احتراق وشجون ودموع.

وكثيراً ما يصف طاهر زمخشري الحب بأنه (وقد في دمائه) كقوله:(41)

في دمائي من نار حبك وقد ومن الروض في شفاهك ورْدُ

ويقترن تصوير الشاعر عاطفة الحب بالألحان والأنغام والموسيقى، وتلك ظاهرة بارزة في شعر طاهر زمخشري الرومانسي، فهو عاشق يعزف ألحان الحب على قيثارته، وهو يرى في مفاتيح من يهواها أنغاماً وألحاناً، كقوله:(42)

سأسمع من جفونك صوت قلبي	متى همستُ بالحن التصبي
فمن لحظيك أنغام نشاوى	معازفها نياطُ شبحٍ محبٍ (43)
وينسابُ الصدى عذباً طروباً	يدغدغ باللطافة روح صبّ
وتلثم من بشاشته الخزامى	لتنشر عطرها الزاكي بدربي
سأسمع منك ألحان التصابي	مرجعة موقعة بهذب

فالحب والجمال والمفاتيح تقترب بالألحان، وكل مفاتيح المرأة تبدو كنغمات شجية متناسقة، فالألحان تعزف ألحان الصباية فينتاب صداها عذباً طروباً، وهذه الألحان تقترب بالعطر وتستدعي رائحة الخزامى.

وتنبئ الصور والمعاني الرومانسية بكثافة في شعر طاهر زمخشري الوجداني، ومن ذلك قوله:(44)

في دمائي من نار حبك وقد	ومن الروض في شفاهك ورْدُ
ومجون الخطى من الهيف الراقص	لحن قيثاره فيك قد
وعلى طرفك المبحج بالإغراء	سيف له المفاتيح حد
ويشد الحنين سمعي إلى صوتك	والرجع من حديثك شهد
والتعابير في محياك إشراق	بشاشات ظرفه لا تحد
أنت يا ربة العداير يا من	كسرت جفنها فعربد نهد

فالحب -في رؤية طاهر زمخشري- احتراق، وكثيراً ما يمزج بين صفات الحبيبة ومظاهر الطبيعة، وهي من السمات البارزة في شعره الرومانسي، كصورة الروض والورد والشفاه، وتتردد بعض الصور المبتكرة، ومنها صورة (مجون الخطي) و(الهيّيف الراقص) وتتردد صورة اللحن والقيثار في معرض وصف الخطوات والقد، كما يتردد تعبير (يا ربة الغدائر) في خطاب الحبيبة وهو من الصور والمعاني الرومانسية التي تتردد في شعر شعراء الرومانسية، وتلفتنا الصورة الحسية في قوله: (فعربد نهدي).

وإذا كان طاهر زمخشري عنون ديوانه بـ (ألحان مغترب) فإن قصائده في الحب تنويعات لحنية، وصفات المرأة تمتزج عنده بالألحان والإيقاع والطبيعة. يقول: (45)

قد تعلّقتُ بها من نظرة	طوّفتُ بالروح في دنيا رؤاها
وفؤادي لم تزل دقّاته	تتّهادي كلما الشوق دعاها
يسكبُ الأنفاسَ لحناً والصدى	ساحرُ الإيقاع من وقع خطاها
عند مجرى العطر في منبعه	بين طفلين استراحا لشذاها
وشعاعُ البسمة الجدلى علي	تغرّها الوردى رأد من ضحاها
وهي في دنيا الهوى أُمّية	صافحتُ نفسي بأحلى مُشتهاها

فالشاعر يؤمن بالحب الروحاني، وهو لا يفتأ يسكب أنفاسه لحناً فيتردد الصدى ساحر الإيقاع من وقع خطوات الحبيبة.

وفي ديوان (ألحان مغترب) قصيدة بعنوان (حلوّة) نحس فيها بأصداء قصيدة (صلوات في هيكل الحب) لأبي القاسم الشابي، وفيها يقول: (46)

حلوّة أنتِ بالمعاني التي أشعرُ	في ظلّها بمعنى وجودي
وبميني بخصلة الشعر تلهو	ثم تختالُ بين نهدي وجيد
وأنا في العناق أعبّر مجرى	بين موج السنا ومجنى الورود
وعلى طرفك المعرّب بالإغراء	آياتُ حسنك المعهود
وتنادي إلى التبتل في المحراب	دقّات خافقي مغمود
وعلى رفرف من النور يشدو	والوجيبُ الحنونُ ناي النشيد
وحطى الليل في ستار من الفتنة	تقفو حطى الهلال الوليد
والسماء الزرقاء تومضُ بالنجم	فتجلو مكاننا من بعيد
وأنا في السكون أقطف أفراسي	وأبدي ضراعتي في السجود
لك، يا حلوّة السمايل: يا أحلى	من الحبّ للفؤاد العميد

وتأثر طاهر زمخشري واضح بقصيدة الشابي: (47)

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام، كاللحن، كالصباح الجديد

فقد احتذى طاهر زمخشري الشابي في استخدام بحر الخفيف والروي (الadal المكسورة)، واحتذاه في استهلال القصيدة، فقال الشابي:

عذبة أنت

وقال طاهر زمخشري:

حلوّة أنت

وترددت عند طاهر زمخشري كلمات القافية في قصيدة الشابي مثل:

(العميد - معمود - النشيد - الوليد - السجود).

وترددت في قصيدة طاهر زمخشري بعض الصور والألفاظ التي نجدها في قصيدة الشابي، مثل (التبتل في المحراب – حسنك المعهود – الفؤاد العميد – دقات خانق معبود) وهي الصورة التي نجدها في قول الشابي (تجلّى لقلبي المعمود).

غير أن هذا التأثير لا يطمس شخصية طاهر زمخشري، فقد استقلّ بصوره وتعبيراته المتفردة، كصورة الطرف المعربد بالإغراء، وصورة (رفرف النور وهو يشدو) وصورة الشاعر وهو (يقطف أفراده)، وصورته وهو (بيدي ضراسته في السجود) مما يلقي على القصيدة ظلالاً روحية، ويضيف على تجربته الحب مسحة إشرافية نورانية.

ونقع في ديوان ألحان (مغترب) على صور يرسمها الشاعر ببراعة تقترب من البناء الدرامي والنزعة القصصية، كما نرى في قصيدة بعنوان (صورة) يقول فيها: (48)

وفاتنة ماس الدلال بقدها	وعربد دون الخصر منها بموجتين
فقامت تهادي في ستار من الدجى	وإنّ عليها من حواشيه بُردتين
وغابت عن الأنظار خلف غدائر	فأسفر وجه الصبح ما بين خصلتين
فلما تدانت من وسادي ترنحت	فطوّقتها خوفاً عليها بساعدين
ووسدتها زندي، فلما احتضنتها	طبعث على الجيد المنور قبلتين
فأغضت وقالت: كيف أهملت وجنة	وإن بها من ضاحك الروض وردتين
وإنّ مجاري العطر فوق ترائبي	على الصدر ناغت بالعبير حمامتين
فغردت للحب في مسبح السنّا	وأنعشنا بالرجع دقة خافقين
وإنك لم تلحظ وأنت تضمّني	فتونا به الإغراء صور مقلتين
فقلت: لأنني من حديثك والما	شربت خموراً أنعشتني بسكرتين

والقصيدة صورة قصصية أو لقطة لمشهد يصور جرأة تلك الفتاة التي امتلكت زمام المبادرة وأفصحت عن مشاعرها بجرأة غير معهودة، ولم تخجل من التغني بمفاتنها في تلذذ واستعراض لمفاتنها وهو ما استدعى شيوع الصورة المغرقة في الحسية في القصيدة من خلال بنية حوارية منحت القصيدة حساً درامياً.

وطاهر زمخشري شأنه شأن الرومانسيين يطيل الحديث عن الذكريات والأيام الخوالي ويكثر في شعره من استحضارها والتلذذ بالحديث عنها. يقول: (49)

يا نجيّ الفؤاد في ضاحك الروض	ويا مُعشي بصفو الوداد
كيف أنسى الأيام في ظلك الوداع	أجني من الوصال مُرادي
منية النفس أعيش لنجواك	طليقاً مغرداً كالشوادي
فاذا ثار باللواعج إغصار	تدريه مُقلتي بالسهاد

ويلفتنا صيغة النداء (يا نجيّ الفؤاد) وهي من التعبيرات الرومانسية ذات الدلالة على عمق الإحساس بالحب، وهو لا يفتأ يعبر عن وفائه لأيام الصفو وأمانيه أن يظل وفيّاً للذكرى، ممنى النفس بأن يحيا طليقاً مغرداً كالطير (ونلاحظ تكرار نغمة الشدو والغناء التي تعد ظاهرة بارزة في شعر طاهر زمخشري)، وهو ما نراه كذلك في هذه الأبيات: (50)

وعلى صدى نجواه أنثر في	الحرائق دُوب أنفاسي لُحونا
ويُجيد همساً بالجفون لأصطلي	بالنار تلدغي وتُنثرني أنينا

هكذا ترتبط الذكرى والفراق بالاحترق الذي يصير غناءً حزيناً ولحناً شجياً بينما تتجذر صورة الاصطلاء بالنار وتتردد كثيراً في قصائده.

وكثير من الشعراء الرومانسيين يتحدثون في قصائدهم عن (قصة الأمس) على النحو الذي نجده عند الشاعر المصري أحمد فتحي في قصيدته الشهيرة (قصة الأمس)، وهو ما نجده كذلك عند طاهر زمخشري، يقول: (51)

قِصَّةُ الأَمْسِ من صداها أثارَتْ	في تضاعيفٍ مهجتي	أحزاني
كلما عَضَعْتُ جراحَ أحاسيسي	وناثَتْ بوَخرَها	وُجْداني
أَتَلَوْتُ على وسادي من الأَيْنِ	وتصحو لَواعِجي	في كياني
وَتَمَلَّمْتُ في قيودٍ من الصبر	مفاتيحُها	بكفِّ الزمان

فالشاعر لا يستطيع أن ينسى (قصة الأمس)، حيث يتردد صداها في أعماقه فتهيج أحزانه وتنكأ جراحه، وتؤدي الصور الحركية دورها في إبراز المعنى وإثرائه، كصورة الشاعر وهو يتلوى في فراشه لا يستطيع النوم من ألم الفراق وصورة (التململ في قيود الصبر). ويقترن الفراق بالذكريات والمعاناة والألم: (52)

افْتَرَقْنَا والذكرياتُ البواقي	تَتَغَنَّيْ بِأُمُسياتِ التلاقي
افترقنا ولم نَزَلْ بالتباريح	نُعاني من لوعةِ الأشواقِ

ويظل الشاعر مشدوداً إلى الماضي بذكرياته الجميلة، فإذا ظنَّ أنه ظفر بالنسيان أعادته الليالي إلى الماضي الغالي: (53)

أَقُولُ: نسيْتُ. تُرجعني الليالي	تُذَكِّرُنِي بأيامي	العَوالي
تَذَكِّرُنِي بماضٍ كنتُ فيه	أَغْدُ السعيِ أحلم	بالمُحالِ

وقد يحمل حديث الذكريات تفاصيل العلاقة الحميمة بين العاشقين، كقوله: (54)

كل صبِّ بَخَطُوهُ يَسْبِقُ الدَّقَاتِ	من صوتِ قلبه	الخفاق
للصبا والجمال، للنشوة البُكر	لقطفِ الجَنَى من	الأحداقِ
همساتُ الجفون تَسْكُبُ أَلحاناً	ورجعُ النشيدِ في	الإغراقِ
كلما أَطْبَقَ الظلامُ حوالينا	انْتَنَيْنَا لِقَبْلَةٍ	وعناقِ
وهَصَرْنَا روحين في لاجع	الحبِّ فذابا بكأسِهِ	الدَّقاقِ
في حواشي الدجون تَنعَمُ باللذاتِ	والصفو بالمسرةِ	ساقِي
وانْتَشَيْنَا وما عَلِمْنَا بأنَّا	سوف نَشْقَى وَنَكْتَوِي	بالفراقِ
والمكانُ المهجورُ يَحْفَظُ عَنَّا	قِصَصَ الحبِّ، في ظلالِ الوفاقِ	

إن الذكرى تستدعي مشاهد العشق وتحثي بالصبا والجمال والنشوة واقتطاف ثمرة العشق، وتتردد صورة همسات الجفون التي تسكب الألحان ولا يجد الشاعر حرجاً في الإشارات الحسية والصور والتعبيرات الجريئة المباشرة.

والملفت في شعر طاهر زمخشري أن كل ما يتصل بالحب والذكرى والفراق يتحول إلى غناء حتى الشكوى تصير غنوة: (55)

شكوتي غنوةً تَنَدَّتْ بها
وصداها انتفاضةً تُلهِبُ
وبكفٍ العفاءِ أُنْتُ حكاياتُ
ومتي هزّها إلى البوحِ إصايرُ
تَقَرَّعُ السمعَ بالأنين الذي أَلْفُظُ
وأروُدُ الدروبَ من رَجْعِها الصاخبِ
من خافقٍ طروبٍ الأغاني
وتُجْري كوامنَ الأشجانِ
ترامثٍ منهوكةً في لساني
أذاعتُ سطورها أجفاني
من لوعتي وفي أَلحاني
جَلَدًا مُعَرِّدًا في المغاني

فالشاعر يغني وهو في موقف الذكرى، ويغني في موقف الغرام، ويغني في موقف الحزن والألم، ويغني في لحظات الفرح والرضا: (56)

سوف أنسى لوعة الماضي البعيد
سوف لا أسأل عن أمسي الذي
لا ولا أطوي التباريح التي
سأغني والرضا يلهمني
في مغانٍ كنتُ والحبُّ بها
لم تزل تُرسل أَلحانَ الهوى
وتحرّرتُ من الغلِّ الذي
جئتُ والحبُّ جديداً بعد أن
ولهبُ الشوق يجري في دمي
وأهني النفس بالحب الجديد
مَرَقَ العمرَ بأنياب النكود
هَصَرْتُ بالألم الصارخ عودي
والصدى يحمل أنفاس الورود
أسكب الصبوة في الفَيء السعيد
بعد أن حطمتُ أفعال القيود
كاد يَطويني بأغوار اللحد
صافحتُ روحي في معناه عيدي
بهوى يَغْمُرُ بالصفو وجودي

الرومانسي لا يكف عن الحب لأنه من دعائم الشخصية الرومانسية، فإذا انتهت تجربة الحب أخذ الشاعر يبحث عن حب جديد ينسى به لوعة الماضي، وأحزان الأمس، ويمحو به جراحات النفس، وسيكون هذا الحب دافعاً للغناء والرضا ويمنح الشاعر الأمل في حياة جديدة مشرقة تُذهب أحزانه وآلامه.

المبحث الرابع

التشكيل بالصورة

تعتمد المدرسة الرومانسية على الخيال بصورة كبيرة، «لاسيما مدرسة الرومانسيين في إنجلترا» (57)، كما أعلى الشعراء العرب ممن ينتمون إلى الرومانسية من شأن الخيال، وأفسحوا للتصوير مكاناً بارزاً في شعرهم، باعتبار أن الصورة وليدة الخيال وانعكاس له.

ولأن الصورة وليدة الخيال، فهي «تمثيل لجميع أنواع التجارب الحسية من صوتية وبصرية تشمل اللون والشكل والذوق والشم واللمس مثل الصور التشكيلية». (58)

ويرى د. محمد غنيمي هلال أن «الصورة الشعرية تسهم دائماً في التعبير عن رؤية الشاعر للواقع، فتصور مشاعره وأفكاره، وتحمل أصالته وتفردته، لأنها وسيلة ينقل بها الكاتب أفكاره، ويصنع بها خياله». (59)

فالصورة هي وليدة الخيال وثمرته، وهي «أداة الخيال، ومادته المهمة التي يمارس بها ومن خلالها فاعليته ونشاطه». (60)

والخيال هو الذي يلتقط عناصر الصورة من الواقع الحسي، «وهو الذي يعيد التأليف بين هذه العناصر والمكونات ليبنى صورة للعالم الشعري الخاص بالشاعر، بكل ما فيه من مكونات شعورية ونفسية وفكرية». (61)

فالصورة عنصر جوهري في الشعر الرومانسي انعكاساً لاهتمام الشعراء بالخيال.

وقد تزوّد طاهر زمخشري -مثله في ذلك كمثّل الشعراء الرومانسيين- بخيال خصب واسع ومملكة تصويرية مبدعة، فكان للتصوير في شعره منزلة خاصة، حتى ليتمكن أن نصف شعره بأنه «التعبير بالصورة» فهو ينسج صوره ببراعة، ويعيد تشكيلها في سياق جديد، ويكسبها توهجاً، ويرسمها انعكاساً لحوالج ذاته الشاعرية، ويبتكر من خلالها علاقات جديدة، ويحيطها بعالم غني من الإحياءات والدلالات.

ويعد تطور الصورة في شعر طاهر زمخشري مواكبة للتطور الذي طرأ على الصورة في الشعر الحديث، حيث اتخذت الصورة «دوراً رئيساً في بناء القصيدة حتى صارت أحد أسس التركيب الشعري، وانتقلت من كونها طرفاً من أطراف التشبيه يُقصد فيها إيضاح المعنى وتأكيد في الذهن إلى أن أصبحت هي نفسها حالة شعرية تنبع من أعماقها المعاني الموحاة من الشاعر والمتخيلة من القارئ لما في الصورة من تدفق شعري فياض» (62).

وتتسم الصورة الشعرية في ديوان (ألحان مغترب) بسمات خاصة تنحصر فيما يأتي:

تراسل الحواس:

وهو أن تأخذ حاسة وظيفة حاسة أخرى، كأن تصافح العين، أو يصفق القلب، أو تشمُّ الأذن، وهو وسيلة يصطنعها الشعراء الرومانسيون كثيراً، وقد أخذوها من الرمزيين، «فتراسل الحواس معناه وصف مدركات حاسة من الحواس بصفات مدركات حاسة أخرى، فنعطي للأشياء التي ندركها بحاسة السمع صفات الأشياء التي ندركها بحاسة البصر، ونصف الأشياء التي ندركها بحاسة الذوق بصفات الأشياء التي ندركها بحاسة الشم، وهكذا تصبح الأصوات ألواناً، والطعوم عطوراً» (63).

فالحواس تتراسل مدركاتها حتى ليختلط ما هو حسّي بغيره «ومن الطبيعي أن يستعير الشاعر من مجال إحدى الحواس ما يخلعه على معطيات حاسة أخرى، إذا كان في هذه الاستعارة ما يعين على الإحياء بما يستعصي على التعبير الدلالي من دقائق النفس وأسرارها الكافية، فالنفس الإنسانية -في جوهرها- وحدة ترتد إليها وسائل الإدراك على تعددها» (64).

وقد وظف طاهر زمخشري هذه التقنية -بمهاراة- في قصائد ديوانه (ألحان مغترب)، فراسل بين الحواس المختلفة على نحو يثير الدهشة ويخالف أفق التوقع، ومن ذلك قوله: (65)

لا تكذبي قد صافحت عيني اليقينا أشعلت في رأسي بفعلتك الظنونا

فقد جعل العين هنا تقوم بالمصافحة وأعطاه وظيفة اليد بغرض التأكيد.

ومن ذلك قوله: (66)

يتساقون بالعيون ابتسا ماتٍ وهم في معارج الجوزاء

فقد أعطى للعيون وظيفة السقيا ونقلها إلى مجال دلالي آخر هو الابتسام والبهجة.

وفي لقطة أخرى جعل الشاعر الدمع يذيع الأسرار. يقول: (67)

سكتٌ عنها ولكن دمعي الجاري أذاع بين يديها بعض أخباري

فقد أعطى الدمع وظيفة أخرى هي الكلام وإذاعة الأخبار.

وفي موضع آخر أعطى للعين وظيفة اليد فقال: (68)

وزادني فتنة صمتٌ تلوذُّ به والطرف يسكبُ في الإيماء أَلحانا

فالعين هنا تتراسل مع اليد وتقوم بفعل السكب.

ويعطي للعين وظيفة الغناء، فيقول: (69)

أطوقها بالساعدين فتنحني بصدري ويشدو طرفها وهو سكران

ويجعل الجفون تهمس وتتكلم، يقول: (70)

وعروس المنى على أذرع اللي بالتفاتات جيدها بالإشرا
ل تبث الفتون في الآماد ت، بهمس الجفون، بالإنشاد

ويتخيل الجفون تسكب وتهمس، فيقول: (71)

رئحتني الألاحظ منه بإغراء فإذا بالجفون تسكب همساً
وما زلت أشتهي أن أنا زادني رجعه الحنون اشتعلا

وفي موضع آخر يتخيل العينين أو العبرات تقوم بالسؤال، والتوسل إلى الله. يقول: (72)

ربّ رحماك قد وهبت فؤادي أنت قدّرت، ثم كنت رحيماً
خير ما أرتجيه من أفضالك حين أرسلت عبرتي لسؤالك

ويوظف حاستي السمع واللمس، فيقول: (73)

سأسمع لا وألمس بل وألقى تريني الحسن ألواناً فأصبو
مفاتن كلّها تُغري وتَسبي وحسبي فتنةً بالطرفِ حسبي

ويعطي للأذن وظيفة العين، فيعشق بالسمع لا بالرؤية، يقول: (74)

يا لطيب الشذا عشقتك بالسم وسقيت الأفراح من أطيّب الذكر
ع فأعلنت صبوتي بنشدي ي، فصافحت في انتظارك عيدي

وعلى هذا النحو من البراعة والمهارة استطاع طاهر زمخشري أن يرسل بين الحواس سالكاً مسلك الشعراء الرومانسيين في هذا المجال.

● مزج المتناقضات:

ويعني ألا يقف الشاعر «بالعلاقات المألوفة بين عناصر الصورة عند حدود الجمع بين الأشياء المتباعدة عن طريق ترسل الحواس، وغير ذلك من الوسائل الفنية، وإنما يتجاوز الأمر ذلك إلى مزج المتناقضات في كيان واحد يعانق في إطاره الشيء ونقيضه، ويمتزج به مستمداً منه بعض خصائصه ومضيفاً عليه بعض سماته، تعبيراً عن الحالات النفسية والأحاسيس الغامضة المبهمة، التي تتعانق فيها المشاعر المتضادة وتتفاعل». (75)

وتشيع هذه الظاهرة في شعر طاهر زمخشري باعتبار أن التناقض سمة من سمات الخطاب الشعري الرومانسي عند الشعراء الرومانسيين لإبراز أحاسيسهم القلقة المتباينة. ومن ذلك قوله: (76)

وكنْتُ أشقى بجوى أرَّقني فصرْتُ أهفو للشقاء المنعم
وعدتُ بالذكرى أناجي صوراً لما تزل وضاء كالأنجم

فالتناقض هنا ظاهر بين رفض الشاعر لما يحس به من شقاء يؤرقه وبين تقبُّله وحنينه لهذا الشقاء. وشبيه بذلك: (77)

قد كنتُ بالتشتيتِ أندبُ شقوتي فعدتُ ولي هذا الشتاتُ عزاء
حملتُ الأسى ما ضقت ذرعاً بحمله وناشت إهابي بالأذى أسواء
وأذكت جحيماً بالنوى في جوانحي وإنَّ الشظايا في الجنون دماء
أهددهُ بالصبر وهو بأضلعي وبين الحنايا ثورة رعاء

فالشاعر يمزج هنا بين المتناقضات إذ كان يرى في التشتيت شقوة وعذاباً ثم صار يرى فيه تعزية وسلوى، وكذلك الحال وهو يحيا صراعاً نفسياً متناقضاً بين التظاهر بالتحلي بالصبر بينما يحس في أعماقه بثورة وانفعالات قاسية رعاء.

ونجد مثل هذا التناقض في نظره لساعة الحائط. يقول: (78)

أنتِ خرساء أنطقتها شجونٌ أشعلت في الضلوع نار الوجيب
وعلى خطوك الوئيد تلاقى حسراتي، ولوعتي، وشجوني
كلما امتد من طنينك صوتٌ جاذبته جراحتي بالندوب

فالتناقض ظاهر بين إحساس الشاعر بالشجن واشتعال نيران الأسى في قلبه وبين كون الساعة خرساء لا تنطق، كما يجد في خطوات عقاربها البطيئة إحساساً باللوعة، ووجد في طنين صوتها ما يهيج جراحاته. ومن مظاهر الإحساس بالتناقض قوله: (79)

أو يرضيك أن أنوح بدنيا أنت فيها المنى لقلبي الكسير؟!

فالتناقض هنا ماثل بين إحساس الشاعر بالحزن والانكسار برغم كون الحبيبة مناه وأمله في هذه الدنيا. ونجد مثل هذا المزج بين المتناقضات في قوله: (80)

فؤادي لم يَعدْ إلا بقايا من الآهات في صدري تنوخ
ويخفق كلما هتفت شجونٌ ويصدح كلما انتفضت جروح
ويذرغ مُسهداً سودَّ الليالي وفي آماد غرْبته يسوخ
وحسبي أنني أحيأ سعيداً وأنفاسي بما أطوي تبوخ

يلوح لنا هذا التناقض بين الإحساس النابع من قلبه الذي يخفق بالشجون ويصدح بالغناء حين تنتفض الجراح. ومثل هذا الإحساس بالجراح النفسية يقابله إحساس الشاعر بالسعادة.

ومن المزج بين المتناقضات قوله: (81)

وقالوا: النوى يُذكي الشجون ليكتوي
بغير مزار غير أني بحبه
بنيران بلّواها المعنى المتيم
قريير يعطيني الوداد وأنعم

نحس بالتناقض هنا بين رؤية الشاعر للفراق وما يخلفه في النفس من نيران الأسى وبين إحساس الشاعر بالرضا والاطمئنان والنعيم برغم البعد المكاني بينه وبين من يحب.

● المفارقة التصويرية:

هي «تكنيك فني يستخدمه الشاعر المعاصر لإبراز التناقض بين متقابلين بينهما نوع من التناقض. والتناقض في المفارقة فكرة تقوم على استنكار الاختلاف والتفاوت بين أوضاع كان من شأنها أن تتفق وتتماثل، أو بتعبير مقابل تقوم على افتراض ضرورة الاتفاق فيما واقعه الاختلاف»⁽⁸²⁾

فالمفارقة -في حقيقتها- «تناقض ظاهري لا نلبث أن نتبين حقيقته، وهي ذات أهمية خاصة، بحكم أنها لغة شاعرة، لا محسن بديعي»⁽⁸³⁾

وقد استخدم طاهر زمخشري هذه التقنية في قصائد ديوانه (أحان مغترب) وعبر بها عن أحاسيسه في موقفين متباينين، ومن ذلك قوله:⁽⁸⁴⁾

بين تلك الأكوام فوق الصخور	اذكري يا دروب من كان يجثو
من خلفه كلاب الجوّاري	وقطيع الأغنام يركض للهوة
توّاري مكانه بالعفار	وهي في حيرة تنن لمراه
الأوهام يرميه باللّطي الموار	وانطلاق الوجوم في رحة
وفي مقلّتيه شعله نار	فيجوب الطريق، في رجله القيد
ليرتاح تحت ظلّ الجدار	يتخطى الظلام رَحفاً من الأين
فألقي زمامه للفرار	فهناك الأشباخ لفته بالدعر
لانداً من جحيمها بالنهار	وانزوى يطلب السلامة منها
الغناء ثرويه بالشذا المعطار	في ظلال الورود، في الروضة
واشرافها صدى قيثار	هو ذا وابتسامه فرحة تشدو
طّة عادت إليه باستقرار	يتصبى الحياة في كنف الغد

يصور الشاعر هنا موقفين متناقضين: موقفه وهو يجتاز الدروب ويواجه الأخطار وما يتخفى في الظلام من أشباح، وما يحاصره من دعر وخوف ثم ما يقابل هذا الموقف حين تنقشع الغمة، فنراه ينعم بالسعادة في أحضان الروضة الغناء، وقد عاد إليه الاستقرار والهدوء والاطمئنان.

ومن المفارقة التصويرية قوله:⁽⁸⁵⁾

وأسكب في مغانيتها الليالي	أناغي في مراعها الأمانى
إلى مجلى السنا بين التلال	وأزحف بالأنين على الدياجي
وترقصني الطيوف من الخيال	تداعبني من الأفق الدراري
وتنشر من مفاتها حيالي	وأمالى الوضاء تهز نفسي
تطوف به البشاشة في المجالي	ويصدخ بين أضلاعي جريح
أجوب بصرفها سود الليالي	وكأس الصفو مترعة بكفي
حلاوته التعلق بالجمال	لأسعد في الحياة على شقاء

وأقتطف الجنى منه شجوناً أجنُّ بها لأيامي الخوالي

يتقلب الشاعر بين إحساسين متناقضين: إحساسه الداخلي بالصفاء كما عبّر بصورة (وكأس الصفو مترعة بكفي) وإحساسه الخارجي باستهدافه من (سود الليالي) والمقابلة بين (الدياجي) و(مجلّى السنا) وبين الإحساس بالسعادة في الحياة برغم ما يواجهه من شقاء وظلام.

● التشخيص والتجسيد:

يميل الشعراء الرومانسيون إلى استخدام هذه التقنية، فيشخصون الجوامد، ويجسدون المعنويات، وهو ما يمثل ظاهرة بارزة في شعر طاهر زمخشري، فقد أسرف في هذه الناحية حتى تحولت المرئيات عنده إلى صور من التشخيص والتجسيد، والأمثلة على ذلك تفوق الحصر، ومن ذلك قوله: (86)

وعويلُ الآلام يصرخُ حولي وبهزُّ القويِّ من عَرَماي
فأذاري عن الليالي شجوني وأغذُّ السرى إلى غاياتي
كلما زَمَجَرَتْ همومٌ حيالي صاوَلَتْها عزائمي في أناة

فقد تجسدت الآلام في صورة من يقوم بالعويل والصراخ، كما تجسدت الهموم فصارت وحشا يزمجر ويستهدف الشاعر.

ومن التشخيص قوله: (87)

وعروسُ المنى على أذرع الليل ل تبثُّ الفتون في الأماد

فالأمنيات تتجسد في صورة عروس ويتجسد الليل كذلك في صورة إنسان له أذرع.

وقريب من هذه الصورة قوله: (88)

كلُّ شيءٍ لديك يضحك حتى الصخر يرنو معبّر اللمحات
في ذراع الدجى على دربك المشرق كانت تلوح لي أمنياتي

فالصخر له عيان ينظر بهما وصورة ذراع الليل تتردد مرة أخرى.

وها هي صورة (ذراع الدجى) تتردد مرة أخرى: (89)

وذراعُ الدجى بجيدك يلهو وعلى صدرك الحنون وسادي

وهي من الصور الغريبة اللافتة: صورة ذراع الليل وهو يلهو بعنق المحبوبة.

ويطلُّ الظلام في صورة كهف موحش تزحف فيه الأشباح لاغتيال الشاعر: (90)

تزحف الأشباح في كهف الدجى لاغتيالِي وفوادي مُجْهَدُ

وتتشخص المنى في صورة إنسان بشوش مبتسم: (91)

والمنى تضحك في أحاطها بأفانين جمال من ضيائها

وكثيراً ما يعمد طاهر زمخشري إلى التشخيص في تصوير آلامه والتعبير عن إحساسه باليأس والإحباط، كقوله: (92)

أنا للوهم قد وهيتُ حياتي
فرماني باليأس يأكلُ أيامي
فإذا بالشجون تنحَرُ عظمي
فتعزَّرتُ في الطريق بهول
عشتُ في قبضة الليالي أسيراً
مُسهداً والرؤى تطوفُ حيالي
كنت أروي ظلالها بدموعي

وبنيتُ الصروح بالأمنيات
ويبقى على مداها شكاتي
وتندسُ الآلام في خلجاتي
دكَّ -جبارُه- صميمَ الحياة
تنرَّامي بلوعتي زفراتي
بأفانين من مئى كاذبات
وهي تكوي بنارها عمق ذاتي

فالشاعر يشخص المعنويات، فيرى اليأس وحشاً يلتهم حياته، ويتخيل الأحزان محسوسات تنهش عظامه وتنشر الآلام في جسده، وقد تجسدت الليالي في صورة باطش ذي قبضة قوية أوقعت الشاعر في الأسر كما تشخصت الرؤى والمنى التي اكتسبت صفة بشرية هي الكذب.

ونجد مثل هذا التشخيص في قوله: (93)

وأمشي طعيناً في الحنايا زوافري
أجرُ ذبول اليأس في كل مهيع
فلا كيدي البالي يني عن مقاصدي

تضجُ ويطويها الفؤاد المعذبُ
ينيرُ حفافِها الشقاء المحببُ
ولا أنا مهما جرت بي أتعذبُ

الشاعر يصدر هنا عن الإحساس ذاته الذي عبَّر عنه في القصيدة السابقة، فيشخص ما يحس به، وما يعاينه، ففي أعماقه ثورة وانفعالات تضج، وقد تشخص اليأس فصار له ذبول يجزُّها الشاعر في كل طريق يسير فيه.

● صور الحواس:

تعتمد الصورة الشعرية على الحواس، وهو ما التفت إليه النقاد القدامى والمحدثون، فأكد أهميتها حازم القرطاجني فقال: «وأما الأشياء فمنها ما يُدرك بالحواس ومنها ما لا يُدرك بالحواس. والذي يدركه الإنسان بالحواس فهو الذي تتخيله النفس، لأن التخيل تابع للحواس» (94)

كما اهتمت الدراسات النقدية الحديثة بالصورة الحسية، وأكدت أن الطابع الحسي للصورة الشعرية نابع من أهميتها حتى وإن تكن صورة وهمية، " فالحواس أقدم صحبة للإنسان، وهي تهيئ للخيال مادة حركته، ومبدأ انطلاقه." (95)

والصورة الحسية تبرز في الشعر من خلال ذكر الحواس وهي البصر والشم والتذوق واللمس «ولكن لتكتمل عناصر الصورة لدى الشاعر عليه أن يجيد اختيار الألفاظ ذات المغزى والألفاظ المؤثرة» (96)

وقد وظف طاهر زمخشري الصورة الحسية وعكس من خلالها أحاسيسه وتجاربه وأفكاره.

● الصور العطرية:

ونلاحظ أن الصورة العطرية أو الشمية هي أكثر صور الحواس استحضاراً في شعر طاهر زمخشري، وهي سمة عند الشعراء الرومانسيين، ومن ذلك قوله: (97)

كم تمنيتُ أن أراكِ فأشرقَتِ
مُدَّ تخطرتِ في مسارح أحلامي
فرايتُ الجمالَ فيك بشاشاتٍ
إذ تفتَّحتِ كالورود بأنفاسٍ
وعبيرُ الأزهار في دربكِ الأخضرِ
بالشدى فيك، بالسنى من معانيك
في تعابير مقلّة تسكبُ النور

وصافحتُ بالمنى نظراتي
ونوّرتُ بالرّضا عمق ذاتي
رؤاها تفيض بالبسماتِ
ثروِي بعطرها خلجاتي
ناغى فتوّه خفقاتي
بأغلى المنى، بصفو الحياة
بهذبٍ مجنّح اللّمحاتِ

همسها بالجفون يُنْعِشُ أوصالي ويُنْكِ الضَّرامَ في طيَّاتي

والشاعر -في خطابه الرومانسي- يشيد بعطاء الحبيبة، وحضورها الجميل في حياته، وإشراقها في وجوده، ويشبهها بالورود التي تفتحت وبثت عطرها في حناياه، ويقرنها بالشذى وعبير الأزهار. ونجد مثل هذه الصور العطرية في قوله: (98)

أنا في مصرَ بين خُضِرِ الروابي	تائهَ أعبرَ الحياةَ وحيداً
جَدَّدْتُ من هَوَايَ بسمَةً تُعْرِ	يُنْظُمُ الدَّرَّ في الحديثِ عُقوداً
بسمَةً خُلُوةً يَغْلُفُها الورْدُ	وتتَدَي بما تُفِيضُ بَروداً
وروى البسمَةَ التي تنفُثُ السحرَ	تُدَاوي برُجْعِها المفوُوداً
بشداً الورْدَ وهو يُنْضَحُ بالألحانِ	من مَبْسَمٍ يناعي الوروداً

لقد وجد الشاعر في ابتسامه الحبيبة ما جدَّد الحب في أعماقه وتخيل تلك الابتسامه يغلفها ورد الشفاه، ويفوح شذا الورد منها فيتجاوب مع ورد الروضة التي احتضنت اللقاء.

وللشاعر قصيدة بعنوان (زجاجة عطر) تحتشد بالصور العطرية، وفيها يقول: (99)

وفاتنةً أهدت إليَّ زُجاجةً	من العطرِ وَشَّتْ بالبِشاشةِ أحلامي
تَجَمَّعَ فيها الورْدُ يُعْطِي سُلَافه	وأكمأه كَأسي وأنفاسه جامي
أعانقها بالروح وهي بجانبِي	وأطياؤها الجَذلي ورائي وفُدَّامي
وفي ثغرها تَعْفُو جِراحَهُ خافقي	وتَصْحُو الأمانِي الباسماتُ بآيامي
رُؤاها عِذابٌ كُلُّما جَاشَ بي الهوى	وعانقتُها جادتْ بِنَفْثَةِ بَسَام
يُناغي الشِّدا المِعْطَارُ منها زَوافري	ويسري بأحلى ما تُرْجِعُ أنغامي
ويزوي برفراق العبيرِ جَوانحي	وتُبرِّدُ في أعماقِ نفسي آلامي
يَمُدُّ ظِلالَ الذِّكرياتِ عبيْرُها	بأفوافِ أزهارِ ورقَةٍ أنسام
وإنَّ شذاها لا يَزالُ لمعزفي	رُواءَ يُناغي بالْمُنَى فَيُضِئُ إلهامي
فأصدحُ بالذكري تَطوَّفُ بخاطري	ويروي صَداها العذبُ حَفَاقِي الظَّامي

إن زجاجة العطر التي أهدتها تلك الفتاة إلى الشاعر كان لها فعل السحر في نفس شاعرنا العاشق الرومانسي الذي يعشق العطر ويناعي الشذا، فقد أحسَّ بالعبير يسري في جوانحه ويروي روحه الظمأى ويحفزه للإلهام والإبداع.

● صور التذوق:

وهي الصور التي تعتمد في تشكيلها على حاسة التذوق، ومن أمثلتها قول الشاعر: (100)

وناهدةً التذيين تدعو إلى الهوى	وتسطو بطرفِ جَفْنِه مُرْهَفِ الحَدِّ
يجيد بغمز اللحظ إنكاء صبوتي	ويسأل: ماذا قد لقيتْ من الوجد؟!
فأقسمتُ أني لم أجد من لَذَاذَةٍ	سوى الحبِّ، إن الحبُّ أَحْلَى من الشَّهيدِ
بأيةِ حَسَنِ سَطَرَتِها مِفاتنُ	تُعَوِّدُ بالإغراءِ فاتنةَ القَدِّ
بما في حواشيها من النور والشذا	بخمرِ مصفَى في الشفاهِ وفي الخَدِّ
بأهدابها الوَسْنَى؛ بطيبِ عبيرها	بما في الرضابِ العذبِ من كوثرِ الخَدِّ

ونلاحظ شيوع الصور الحسية في الأبيات، كصورة (ناهدة التذيين) واللحظ الذي يشبه السيف القاطع، ويقسم الشاعر أنه لم يجد طعم اللذة سوى في الحب، فالحب -في نظره- أحلى من العسل المصفى، ويرى في الشفاه طعم الخمر، وفي الرضاب مذاق الكوثر.

ومن هذه الصور قوله: (101)

من شفاهِ وردية تسكُبُ الخمرَ	بكأسٍ شَفَّافَةٍ	اللاّلاءِ
الحُمَيَّا بها لَمَّاكِ، فهاتِيها أَذْقُ	بالرضا جَمِيلَ	العَطَاءِ
أسكريني فلم أزل أحملُ الحُبَّ	ويَجري لهيئُهُ في	دمائي
وبيرِدِ الرِّضابِ منكِ أَطْفِئِ	وأشدو بصرفِهِ	للهناءِ

فقد عكس الشاعر التشبيه فجعل الخمر - في مذاقها - شبيهة بقبلات الشفاه واستخدم الفعل الدال على (التذوق).

ومن هذه الصور قوله: (102)

فتعالِي أَذْقُ حلاوةَ ما أرجوه في ظل حسنك الفريد

وتكثر مثل هذه الصور الحسية في شعر طاهر زمخشري.

● الصور اللونية:

يُعَدُّ اللون عنصراً مهماً من عناصر الصورة الشعرية، لما يوحي به من دلالات فنية ونفسية تعكس تجربة الشاعر الحياتية، «فعنصر اللون أو الصورة اللونية من أكثر الظواهر التعبيرية وضوحاً في لغة الشاعر الرومانسي، مما يجعلها أحد المفاتيح المهمة في فهم التجربة الشعرية والوصول إلى المغزى الكامن وراء النصوص». (103)

فتوظف الشاعر للألوان يُكسب الصورة الشعرية دلالات عميقة «وتتناول دلالة الألوان في هذه الدوائر تتيح للنص الشعري جملة من الإحياءات والرموز، إذ تتعدى دلالة اللون نطاقها الوضعي المطابق إلى ما هو أعم حيث تتسع دائرة إحياء اللون للتفسير والتأويل». (104)

وقد وظف طاهر زمخشري الصور اللونية بكثافة في قصائد ديوانه (ألحان مغترب)، معبراً بها عن حالاته النفسية والشعورية والوجدانية، ففي سياق تصوير خداع الحبيبة يستدعي صورة البسمة الصفراء التي يراها ضرباً من التضليل تخفي ما تضره تلك الحبيبة من خداع وكذب. يقول: (105)

وعرفتُ أنكِ كنتِ بالأوها	م تغريني لتخدعني فتونا
فالبسمة الصفراء تضلي	ل طويت وراءه ما تضرينا

ويستعمل اللون الأبيض في وصف الأمنيات، فيقول: (106)

وعدت بالذكرى أناجي صوراً	لما تزل وضاء كالأنجم
بها الأماني البيض في ظل الرضا	رؤى توارت خلف سير مُبهم

ويشير إلى الشفاه الوردية، فيقول: (107)

من شفاهِ وردية تسكُبُ الخمرَ	رر بكأسٍ شَفَّافَةٍ	اللاّلاءِ
------------------------------	---------------------	-----------

وشبيه بتلك الصورة قوله: (108)

والشفقُ الوردِي في مبسمٍ	يرقص بالإشعاع من بسمتك
--------------------------	------------------------

ويوظف اللون الأحمر توظيفاً فنياً موحياً، فيقول: (109)

وليس يُبرد حرّ النار في كبدي	إلا سلافةً هذا الأحمر القاني
لأنه الوردُ لكن طيب نكهته	خمرٌ تداوي فؤادي الخافق العاني

فقد تلاعب باللون الأحمر، فأوهم بأنه (الأحمر القاني) ليصرف الذهن إلى الخمر ولكنه لم يلبث أن صرف الصورة إلى الورد والشفاه.

وتتردد صورة الثغر المورد بكثافة، كقوله: (110)

وعلى ثغره المورد أطياف تعاطى الحديث خمراً حلالاً

وقوله: (111)

والكأس وردُ شفاهٍ وريقُهُ والينبوغُ

ويتردد اللون الأسود بدلالاته غير المباشرة، كقوله: (112)

وغبارُ السنين كحل عيني بعد أن كبّل الضنا خطواتي

وتقع على هذه الصورة اللونية الموحية: (113)

في الظلام المضيء بالطلعة الحلوة كحلت مقلتي بالشهاد

ويرسم هذه الصورة اللونية لنيل مصر، يقول: (114)

سندسي النسيج كله الور دُ يناغي بوشيه السمارا

وتلفتنا هذه الصورة اللونية التي يمزج الشاعر فيها بين عنصري اللون والحركة، فيقول: (115)

كلّما افتتر شعّ من ثناياه إشراق تباشيرُهُ تُلَفُّ الوجودا
كخطي الليل وهو يزحف للفجر ويصغي لمزهري مُستعيدا

فالليل يخطط زاحفاً للقاء الفجر ويصغي مستمتعاً لغناء الشاعر.

● الصور الصوتية:

وتتردد في شعر طاهر زمخشري صور تعتمد على حاسة الصوت، كقوله: (116)

عشتُ للحب وقيثاري شجوني لحنهُ ينسابُ في صوت أنيني

فالشاعر يعزف على قيثارة أصواتاً شجية تتجاوب مع صوت أنينه وأحزانه.

ويصور الشاعر صوت الهاتف حين يتبادل الحديث مع الحبيبة، فيقول: (117)

وأغلى الذي أرجوه منه لطافة يبوح به رغم التباعد "هاتف"
يرن كناقوس الكنيسة معلناً وبيعت من أفوافه صوت معزف
نداءً ويسري رجعه في جوانحي يُرقرق طيات الأثير فتونه
يشعُ بمعناها الحديث المتئم يجاهرُ عناً بالهوى حين نُعجم
بأنّ التي ناجيتها كدت تلثم بأحلى أغاريد الرضا يترنم
يهدد إحساسي ويجري به الدم ويمشي به التيار وهو مُنعم

ويلفتنا تشبيه الشاعر صوت الهاتف حين يرنّ بناقوس الكنيسة، كما يشبهه بصوت عازف يردد أحلى الأغاريد التي تهدهد إحساسه.

وعلى هذا النحو اكتسبت الصورة توهجاً وزخماً فنياً في شعر طاهر زمخشري، فعبر بها عن تجاربه وانفعالاته ورؤيته، وأعمل خياله الخصب فابتكر علاقات جديدة بين الأشياء، واعتمد على تقنيات فنية أكسبت

شعره طابعاً رومانسياً أخذاً، مثل التراسل بالحواس، والمزج بين المتناقضات، والمفارقة التصويرية، والتجسيد والتشخيص، وصور الحواس.

نتائج البحث

- من خلال استقراء شعر طاهر زمخشري في ديوانه (ألحان مغترب) توصل البحث إلى النتائج الآتية:
- ١- أن طاهر زمخشري يعد واحداً من أبرز الشعراء العرب الذين تأثروا بالمدرسة الرومانسية وأخلصوا لمبادئها وأفكارها وموضوعاتها.
 - ٢- انعكس تأثير الرومانسية في ديوان (ألحان مغترب) في إعلاء الشاعر من ملكة الخيال وعاطفة الحب وعشق الطبيعة والانصهار في مظاهرها.
 - ٣- برز تأثير المدرسة الرومانسية في ديوان (ألحان مغترب) بصورة واسعة في موضوعات الشعر وصوره ولغته.
 - ٤- أكد البحث أن شعر طاهر زمخشري يعكس إحساساً جاداً بالاغتراب والوحدة والمعاناة النفسية ووجود فجوة واسعة بين أحلامه وواقعه.
 - ٥- هذا طاهر زمخشري حذو الشعراء الرومانسيين في عشق الطبيعة وسبر أغوارها والتوحد معها، فوصف الغاب والبحر ووقف أمام الصخور يناجيها ويخاطبها مخاطبة الصديق.
 - ٦- عبّر طاهر زمخشري في شعره عن عاطفة الحب أصدق تعبير وأحلّه محلاً أثيراً في ديوانه، وكان من الظواهر اللافتة التي رصدها البحث اقتران الحب والجمال بالألحان والغناء.
 - ٧- تشكلت الصورة الرومانسية في ديوان (ألحان مغترب) من عدة عناصر، أبرزها التراسل بالحواس ومزج المتناقضات والمفارقة التصويرية والتشخيص والتجسيد.

المصادر والمراجع

أولاً- المصادر:

- ١- زمخشري، طاهر عبدالرحمن "ديوان ألحان مغترب" ط٢، جدة.. دار تهامة للنشر، ١٩٨٢.
- ثانياً- المراجع:
- ١- باقازي، عبدالله أحمد، "مظاهر في شعر طاهر زمخشري"، ط١، الرياض.. دار الفيصل الثقافية، ١٩٨٨.
- ٢- خليفة، عبد اللطيف محمد، "دراسات في سيكولوجيا الاغتراب" ط١، القاهرة.. مكتبة المدينة.
- ٣- الدسوقي، د. عبد العزيز، "جماعة أبوللو وأثرها في الشعر العربي الحديث" ط٤، مصر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٠.
- ٤- رجب، د. محمود، "الاغتراب سيرة ومصطلح" ط٣، مصر.. دار المعارف، ١٩٨٨.
- ٥- زايد، د. علي عشري، "عن بناء القصيدة العربية الحديثة" ط١، القاهرة.. دار الفصحى للطباعة والنشر، ١٩٩٧.
- ٦- الشابي، أبو القاسم محمد، "ديوان أغاني الحياة" ط١، القاهرة.. الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢.
- ٧- شاكر، د. عبد الحميد، "الغربة المفهوم وتجلياته في الأدب"، ط١، الكويت.. عالم المعرفة، ٢٠١٢.
- ٨- صفوت، جيهان رءوف، "شلي في الأدب العربي الحديث" ط١، القاهرة.. دار المعارف، ١٩٨٢.
- ٩- عبد الله، د. محمد حسن، "الصورة والبناء الشعري" ط١، القاهرة.. دار المعارف، ١٩٨١.
- ١٠- العشماوي، د. محمد زكي، "دراسات في النقد الأدبي المعاصر" ط١، القاهرة.. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- ١١- عصفور، د. جابر، "الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب" ط١، بيروت.. المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢.
- ١٢- العقاد، محمود عباس، "ابن الرومي حياته وشعره" بيروت.. المكتبة العصرية، ١٩٨٤.
- ١٣- علوش، عبدالعزيز، "معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة" بيروت.. دار الكتاب العربي، ١٩٨٥.
- ١٤- عيسى، د. فوزي سعد، "جماليات التلقي قراءة نقدية في الشعر العربي المعاصر" ط١، الإسكندرية.. دار المعرفة الجامعية، ٢٠١٤.
- ١٥- عيسى، د. فوزي سعد، "في الأدب المقارن دراسات تطبيقية" ط١، الإسكندرية.. دار المعرفة الجامعية، ٢٠٢١.
- ١٦- الغزالي، د. عبد الله محمد، "تشریح النص مقاربات تشريحية لنصوص شعرية" ط٢، بيروت.. المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦.
- ١٧- فتوح، د. محمد أحمد، "الرمز والرمزية في الشعر المعاصر" ط١، القاهرة.. دار المعارف، ١٩٨٤.
- ١٨- فضل، د. صلاح، "نظرية البنائية في النقد الأدبي" ط١، بغداد.. دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٧٨.
- ١٩- فهمي، ماهر حسن، "تطور الشعر العربي الحديث في مصر" ط١، القاهرة.. مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٨.
- ٢٠- القرطاجني، حازم، "منهاج البلغاء، وسراج الأدباء"، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، ط١، تونس ١٩٦٦.
- ٢١- كرج، جاكوب، "مقدمة في الشعر"، ترجمة رياض عبد الواحد، بغداد.. دار الشؤون العامة.
- ٢٢- مجاهد، د. عبد المنعم، "الاغتراب في الفلسفة المعاصرة" ط١، دمشق.. دار سعد الدين، ١٩٨٥.
- ٢٣- مصطفى، عبد الله عبد الخالق، "طاهر زمخشري حياته وشعره" طنطا.. مؤسسة سعيد للطباعة.
- ٢٤- نوفل، د. يوسف حسن، "الصورة الشعرية والرمز اللوني" ط١، القاهرة.. دار المعارف، ١٩٩٥.
- ٢٥- هلال، د. محمد غنيمي، "الأدب المقارن" ط١، القاهرة.. دار نهضة مصر، ١٩٩٧.
- ٢٦- هلال، د. محمد غنيمي، "الرومانتيكية" ط١، القاهرة.. دار نهضة مصر، ٢٠٠٣.

الهوامش

- ^(١) جيهان صفوت، "شلي في الأدب العربي الحديث في مصر". ط١، القاهرة.. دار المعارف، ١٩٨٢م، ص: ٩٠.
- ^(٢) المرجع السابق، ص: ١٣.
- ^(٣) محمود رجب، "الاغتراب سيرة ومصطلح". ط١، القاهرة.. دار المعارف، ١٩٨٨م، ص: ١٥.
- ^(٤) د. شاكر عبد الحميد، "الغربة المفهوم وتحليلاته في الأدب". ط١، الكويت.. عالم المعارف، ٢٠١٢م، ص: ٢٦.
- ^(٥) د. مجاهد عبد المنعم مجاهد، "الاغتراب في الفلسفة المعاصرة". ط١، دمشق، ١٩٨٥م، ص: ٧٠.
- ^(٦) د. عبداللطيف محمد خليفة، "دراسات في سيكولوجيا الاغتراب". القاهرة.. مكتبة المدينة، ص: ٥٤.
- ^(٧) طاهر زمخشري، "ديوان ألحان مغترب". ط٢، السعودية.. دار تحامة للنشر، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص: ٤٠.

- 08 المصدر السابق، ص: ٢١
- 09 نفسه، ص: ٢١
- 10 نفسه، ص: ١١٩
- 11 نفسه، ص: ٣٠
- 12 نفسه، ص: ٣٠
- 13 نفسه، ص: ٣١
- 14 نفسه، ص: ٨٩
- 15 نفسه، ص: ٨٢
- 16 نفسه، ص: ٤٥
- 17 نفسه، ص: ١٦
- 18 نفسه، ص: ١٦ - ١٧
- 19 عبدالله عبدالحالقي مصطفى، "طاهر زمخشري حياته وشعره". طنطا، مصر.. مؤسسة سعيد للطباعة، ص: ١١٩
- 20 عبدالعزيز الدسوقي، "جماعة أبوللو وأثرها في الشعر العربي الحديث". مصر.. الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٠، ص: ٥٣
- 21 زمخشري، "ألحان مغترب"، ص: ١٤٤.
- 22 المصدر السابق، ص: ١١٨
- 23 نفسه، ص: ١٦٥
- 24 نفسه، ص: ١١٤
- 25 نفسه، ص: ١٤٠
- 26 نفسه، ص: ١٤١
- 27 نفسه، ص: ١٤١ - ١٤٢
- 28 نفسه، ص: ١٧١
- 29 نفسه، ص: ٢٣٢
- 30 عبدالله باقازي، "مظاهر في شعر طاهر زمخشري". الرياض.. دار الفيصل، ١٩٨٨، ص: ١٤٦
- 31 أبو القاسم الشابي، "ديوان أغاني الحياة". مصر.. الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢م، ص: ٦٤
- 32 زمخشري، "ألحان مغترب"، ص: ٩٦
- 33 المصدر السابق، ص: ١٧٣
- 34 نفسه، ص: ١٣٧
- 35 نفسه، ص: ١١١
- 36 نفسه، ص: ٨٥
- 37 نفسه، ص: ١٥٥
- 38 نفسه، ص: ٦٧
- 39 د. محمد غنيمي هلال، "الرومانتيكية". ط ١، القاهرة.. نضرة مصر، ٢٠٠٣، ص: ١٧٣
- 40 زمخشري، "ألحان مغترب"، ص: ٨٤
- 41 المصدر السابق، ص: ٧٠
- 42 نفسه، ص: ١٣٦

⁽⁴³⁾ ورد هذا الشطر مكسوراً في الديوان.

⁽⁴⁴⁾ نفسه، ص: ٧٠.

⁽⁴⁵⁾ نفسه، ص: ٦٩.

⁽⁴⁶⁾ نفسه، ص: ٥٥.

⁽⁴⁷⁾ الشابي، "ديوان أغاني الحياة"، ص: ١٥٤.

⁽⁴⁸⁾ زحشري، "ألحان مغترب"، ص: ٥٣.

⁽⁴⁹⁾ المصدر السابق، ص: ٦٨.

⁽⁵⁰⁾ المصدر نفسه، ص: ٣٤.

⁽⁵¹⁾ نفسه، ص: ٩٠.

⁽⁵²⁾ نفسه، ص: ١٠١.

⁽⁵³⁾ نفسه، ص: ١٠٤.

⁽⁵⁴⁾ نفسه، ص: ١٠١.

⁽⁵⁵⁾ نفسه، ص: ٩٠.

⁽⁵⁶⁾ نفسه، ص: ١٠٥.

⁽⁵⁷⁾ جيهان صفوت، "شيلي في الأدب العربي الحديث في مصر"، ص: ٧٤.

⁽⁵⁸⁾ صلاح فضل، "نظرية البنائية في النقد الأدبي". بغداد.. دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٧٨، ص: ٣١١.

⁽⁵⁹⁾ د. محمد غنيمي هلال، "الأدب المقارن". ط١، القاهرة.. دار نهضة مصر، ١٩٩٧، ص: ٢٧٩.

⁽⁶⁰⁾ جابر عصفور، "الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب". ط١، بيروت.. المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢، ص: ٤٣٢.

⁽⁶¹⁾ د. علي عشري زايد، "عن بناء القصيدة العربية الحديثة". ط٤، القاهرة.. مكتبة ابن سينا، ٢٠٠٢، ص: ٧٨ — ٧٩.

⁽⁶²⁾ د. عبدالله الغدامي، "تشريح النص، مقاربات تشريحية لنصوص شعرية". ط١، بيروت.. المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦، ص: ١٤٨.

⁽⁶³⁾ د. علي عشري، "عن بناء القصيدة العربية الحديثة". ص: ٨١.

⁽⁶⁴⁾ د. محمد فتوح أحمد، "الرمز والرمزية في الشعر المعاصر". ط٣، القاهرة.. دار المعارف، ١٩٨٤، ص: ٣٣١.

⁽⁶⁵⁾ طاهر زحشري، "ألحان مغترب". ص: ٣٣.

⁽⁶⁶⁾ نفسه، ص: ١١٦.

⁽⁶⁷⁾ نفسه، ص: ٧٤.

⁽⁶⁸⁾ نفسه، ص: ١٨٨.

⁽⁶⁹⁾ نفسه، ص: ٥٧.

⁽⁷⁰⁾ نفسه، ص: ٦٣.

⁽⁷¹⁾ نفسه، ص: ١١٤.

⁽⁷²⁾ نفسه، ص: ٥٠.

⁽⁷³⁾ نفسه، ص: ١٣٦.

⁽⁷⁴⁾ نفسه، ص: ٦٠.

⁽⁷⁵⁾ د. علي عشري، "عن بناء القصيدة العربية الحديثة". ص: ٨٥.

⁽⁷⁶⁾ طاهر زحشري، "ألحان مغترب". ص: ٢٣.

⁽⁷⁷⁾ نفسه، ص: ١٤٣.

- (78) نفسه، ص: ١٤٩
- (79) نفسه، ص: ١٢٩
- (80) نفسه، ص: ٩
- (81) نفسه، ص: ١٥٨.
- (82) عن بناء القصيدة العربية الحديثة (مرجع سابق)، ص ١٣٧.
- (83) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، عبد العزيز علوش، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ص ١٦٢.
- (84) ألحان مغترب، ص ٩٧.
- (85) نفسه، ص: ١٠٤
- (86) نفسه، ص: ٢٠
- (87) نفسه، ص: ٦٣
- (88) نفسه، ص: ٣٧
- (89) نفسه، ص: ٦٨
- (90) نفسه، ص: ٩١
- (91) نفسه، ص: ٦٩
- (92) نفسه، ص: ١٩
- (93) نفسه، ص: ٨٨
- (94) حازم القرطاجني، "منهاج البلغاء وسراج الأدباء". ط١، تونس، ١٩٦٦، ص: ٩٨
- (95) د. محمد حسن عبدالله، "الصورة والبناء الشعري". القاهرة.. دار المعارف، ص: ٣٠
- (96) جاكوب كرج، "مقدمة في الشعر". بغداد.. دار الشؤون العامة، ص: ٧٣
- (97) طاهر زحشيري، "ألحان مغترب". ص: ١١٣
- (98) نفسه، ص: ١٤
- (99) نفسه، ص: ٧١
- (100) نفسه، ص: ٥٦
- (101) نفسه، ص: ٦٧
- (102) نفسه، ص: ٦٠
- (103) د. فوزي عيسى، "جماليات التلقي قراءة نقدية في الشعر العربي المعاصر". ط١، الإسكندرية.. دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٣، ص: ٢٧٤
- (104) د. يوسف حسن نوفل، "الصورة الشعرية والرمز اللوني". القاهرة.. دار المعارف، القاهرة، ص: ١٦
- (105) طاهر زحشيري، "ألحان مغترب". ص: ٣٣
- (106) نفسه، ص: ٢٣
- (107) نفسه، ص: ٦٧
- (108) نفسه، ص: ٧٧
- (109) نفسه، ص: ٧٦
- (110) نفسه، ص: ١١٤
- (111) نفسه، ص: ١١٧

- ¹¹² نفسه، ص: ٢٠
¹¹³ نفسه، ص: ٦٣
¹¹⁴ نفسه، ص: ١٣٨
¹¹⁵ نفسه، ص: ١٥
¹¹⁶ نفسه، ص: ٨٤
¹¹⁷ نفسه، ص: ١٥٨